محمد قطب

حرث الأحلام

رواية

الكتاب: حرث الأحلام .. (رواية)

الكاتب: محمد قطب

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قطب، محمد

حرث الأحلام .. رواية / محمد قطب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولي: **978 –977 –446 – 323 – 3**

أ – العنوان رقم الإيداع : **2017 / 7408**

حرث الأحلام

-1-

كأنه كان يتلهف على انبلاجة الصباح لتخرجه من نومه المخطوف وأشباحه المرعبة.. لعل الضوء الذي يوشح الأفق يهديه إلى سنبلة تكتتز بالحنطة.. تتماوج على ساقها الذهبي، تخرجه من ألمه النفسي، وتكفه عن الندب الذي يأكل القلب.. فالأيام تتوالى في مسخ لا يتغير، يعكر ماء الحياة. وصنع قبحاً يفترس الدروب والنفوس.

لا أمل في رزق وفير أو شحيح، ولا طريق ينتهي بخير هذه الأيام.. عود نفسه على الرضا وارتاد معها آفاق السكينة، وهذبها، وقسرها على صدق القول وإخلاص العمل.. لكن الأبواب موصدة.. تفضي إلى الجحيم.. يدرك أن الدنيا واسعة، وغناها عريض، والخير يفيض على الأجناب والأشداق، ويمرح في أنهر الطرق البهية سريعاً وصادما، لكنه يحول ركبه بعيداً، يبتعد في غل مقصود عن مساكن الإيواء.. عن هؤلاء الذين جمعوهم في همة، ثم رموا بهم بعيداً، ونفضوا أيديهم منهم بعد أن طهروها باليزول.

حقا.. من يتذكر الأطراف البعيدة التي تضج بهاموش البشر!!

يسمع كثيراً عمن تملكوا، وامتلكوا، وابتنوا، وانتهبوا..

***

أمس اختصه حموه بجلسة حميمة.. لم يفته كدر زوج ابنته، والمعاناة التي يمر بها.. زوجته لم تدخر جهداً، لكنها قليلة الحيلة، والولد الصغير يكـــاد يضيع منهما، فالخبز وحده لا يكفي...

– اسمع مني يا ولدي..

وراح يقص عليه ما فعله الغراب ليشرب، ورنا إليه علّ نفسه تصـــفو ويزول الضيق.

– ظل يرمي بالحصى حتى علا الماء فشرب.

ناوله الشاي الأسود، وراح يضغط على مبسم الشيشة في تأن.

– لو بئس الغرب لمات عطشاً.

احتسى الشاي في رشفات ممطوطة.. يرمق الرجل في تلـــذذه وهـــو يسحب الدخان، ويحبسه، ثم يرسله موجات متتابعة... ضغط على فخذه.

– أنت يا ولدي طيب.. تكره الحرام.

ركن كوب الشاي واتكأ على كوعه.. تابع فراشة تهـــيم في فضـــاء الغرفة.

– والحلال!! يعوق الرزق!!

كح الرجل كحة ناشفة فارتج الجسد النحيل.

– سكة الحرام مفتوحة.. وتغري يا ولدي.

ذهنه مشغول بغده. أتى الجفاف على ما ادخره، يخجل كلما عـــادت زوجته محملة من أبيها.. بالخبز والجبن والعسل الأسود، معاشه من خدمة المسجد يكفيه بالكاد.. لكن الحفيد عينه التي يرى بها.

***

حين لمحه الخضراوي يسير مبطئا بمحاذاة المصرف العطـــن، أدرك أنـــه مهموم، وعاطل، يمر عليه الوقت حادا ومملا كشفرة ســـكين.. نـــاداه، واحتضنه. أخذه تحت إبطه وخاضا دربا ملتويا.. بـــدا النبـــات يعـــافر، ويستدعي نموه، والدجاجات تقأقئ فوق تلال القمامة، على حين راحت الماعز تقفز وتتناطح.

– باختصار أمامي فرصة لن تتكرر.

يعلم من هو الخضراوي.. ويتعجب كيف تغفل عنه الشرطة!

ولزم الصمت.

– محل قطع الغيار على ناصية المصرف من الشمال.

رنا إليه ولم ينطق.. لم يقاوم وهو يتداخل تحت ذراع الرجل.

– مطلوب منك عمل فتحة في الجدار الخلفي أو في صـــبة الســـقف. تلك مهنتك فلا تخذلني.

لم يخدعه الحنان الزائف فنطق في تساؤل.

– محل من!

قذفها بسرعة وانتظر الجواب.

– النمس.

خلع نفسه ورمقه في تأن، وهو يربت على صدره.

– اعتبرني ما سمعت.

ليست السرقة مهنتي.

– أنت تعلم أنه جمعها من السرقة والنصب.

ابتسم واستدار عائداً.

***

اصطاد النظرة الشاردة والتنهيدة العميقة، وخيل إليه أن ذهنه يخاتلة، نهض وارتوى من القلة الفخار، ناوله فشرب..

– لا تكن كالنمس.

انتبه وسدد نظرته إلى حميه وهو يطوي فخذه ويمد ساقه.

– ضاقت به الدنيا ولم يصبر– تاجر في العرض والمخدر، وارتشى.

– النمس بك.

– ماذا تظن؟.. من أين جاء بمعرض السيارات.. كانت أمه بائعة خضراوات في نصبة السوق، وأبوه سقاء قديماً.

لم يستطع النوم.

منذ ترك حماه وصورة النمس المتخيلة تملأ سماء الغرفة، وتزاحمه في نومه.. المتقطع.. جاهد حتى اختلس الكرى خفية..

رأى نفسه يخوض في ماء، وكلما أوغل، تعكر حتى بدا كالطين المذاب..

أقدامه غائصة في الطين اللزج..

مسته زفسة من رجل الولد الصغير فنتر نفسه شاهقاً، يمد يده ليمسك بيد حميه.. ينتشله من الطين والحفر..

خرج قبل أن تنهض امرأته.. ألقى نظرة على ولده.. ومضى.. أكمل ارتداء القميص وهو يستقبل البراح.. قطع جسر المصرف ومال في اتجاه الشرق.. لم تكن الشمس قد بزغت فبدا الأفق واقعا تحت ضباب كأنه غمامة شبهاء.

هرول في اتجاه المدق الترابي، ثم اعتلى رابية، وانحدر حتى واجه الطريق.. وركب العربة إلى السوق، فمنذ أن قلت حركة البناء، وطال الكساد المعمار، وهو يرتاد الأسواق.. يقوم بالعمل الذي يطلب منه، أيا

كان العمل.. حتى أضحى وجهه مألوفاً، وأشاع تصديه لابن شلباية المعروف بشراسته ارتياحاً، فدخلت محبته إلى قلوب صغار الباعة.

ولج السوق وهو يفتح أبوابه، ويتهيأ لاستقبال البضائع والبشر، تقف العربات الكارو، ونصف النقل، وحولها صبيان يتأهبون والباعة «السريحة» ينتظرون الأنصبة.

لمحته فأشارت إليه، أفهمته أن المكان لا يصلح وعليه أن ينتبه إلى القفصين، وألا تمتد يد للفراخ.. وأنها لن تتأخر، وجذبت طرف ثوبها وأسرعت، راح يرنو إلى المكان الذي امتلأ بالناس، وداهمت أنفه رائحة الطعمية الطازجة فخطا، واقترب.

لاحت أقراص الطعمية مفروشة بجذاذات البقدونس، وأرغفة الخبز البلدي على طاولة من الجريد والبصل الأخضر والجرجير وعيدان البقدونس مرصوصة على طبق مصنوع من سعف النخيل.

ما إن رآه البائع حتى استبشر خيراً، فهو صباحه الأول.. فتح الرغيف وملأ بالطعمية الساخنة، ودّس فيه ليمونة مالحة، وأوراق الجرجير الخضراء، ولفه في ورق اللحمة ودفع به إليه وأبى أن يتقاضى ثمنه.

عادت المرأة وطلبت معاونتها في اختيار مكان آخر، فمنذ جاءت لم تبع كتكوتا واحداً.. حين رأت اللفة في يده انحنت على القفص وشمرت جلبابها فدس الطعام في جيبه، وأزاحها بخفة، حملها فوق كتفه ومضى تسبقة المرأة في هرولة متعجلة، وعند ساحة الغلال أشارت فأنزل حمله.

عود نفسه على الصبر وحسن الحديث، واتسم بالحصافة، والوداعة وأقبل على من يحادثونه في بشاشة، تغوص عيناه في شفاههم كأنه ينتظر حكمة يلتقطها يتدهر بها ويختزنها.

عاش في الغربة عاماً وحين عاد لم يجد البيت ولا الأم، أخذهما زلزال فيما أخذ. عاتب سكان الجوار فواجهوه في غضب.

– لم نعرف لك عنواناً.

كتم فرحته، وكوّم هداياه وأسلمهما لصندوق محكم.

***

جاءه ليلاً، وأسر إليه أمراً، ظل قلقا أياماً طويلة ثم وافق.. جهز أوراقه وانتظر موعد السفر.. حين تقرر الرحيل وقف أمام أمه يخبرها بما عزم عليه.

لزمت الصمت، وأخرستها المفاجأة، واغرورقت عيناها، وتمتمت في صوت مهيض.

– كده تهرب يا سيد وتسبني!

واحتواه حزن حقيقي سرعان ما كتمه، وظل يسائل نفسه، كيف يهرب.. واغترابه سكين يخز رقبته.. من أجلها يغترب.. غربته في الوطن سترت أخته في سفرته هذه يبلل الجفاف. ويحقق له استقراراً..

أخذه حلمه كما أخذ غيره.. وراح يحلم بفيض المـــال، ويـــبني– في الخيال– الأماني التي روادته، في مسكن جميل، ومكتب صـــغير للبنـــاء، وزوجة ترعاه وتكون له غطاء، أما الأم ففي القلب.. رعاية ومحبة.

مضى إلى البلد الخليجي وزهوة الأحلام تطير به وتسكره.. في المطـــار أخذه الكفيل من يده وأركبه السيارة وذهب بـــه إلى بيـــت نـــاء عـــن العمران.. كان البيت محاطا بسور مدبب ذكره بأسوار البيـــوت الـــتي انهارت وانتهكت أعمدتها..

وقبضت عليه غصة أجمته. أهذا موطن الحلم المترتجي!

كان مكيف السيارة يرسل زخات من الهواء البارد، وانـــدهش ســـيد والرجل – بلحيته الكثيفة وشماخه المسدل وسواكه الذي لا يكف عـــن دعك الفم– يطلب منه أن يسلمه جواز سفره.

– لكنه جواز سفري الخاص.

– وأنا كفيلك

حين طال تردده حسم الكفيل الموقف.

– جواز السفر معي.. هاته.. هذا قانون.

وقع في القبضة التي لا ترحم، لا يعرف أكثر من اسم الكفيل، والمدينة التي هبط فيها. وها هو يبدأ الخطـــوة الأولى في الاســـتحواذ ويطالـــب بالجواز.. أمال رأسه قليلاً، وتأمل الفراغ الأصـــفر وذؤابـــات الصـــبار

الحادة، وشمله هدوء يقترب من الموات.. وتساءل في ذهول: هل يسعفه الجواز في اصطياد الأحلام لو ظل معه؟.. لن يستخدمه أحد غيري، وما الجدوي منه إذا كان الجسد نفسه مقبوضا عليه؟.. فقط عليه أن يتنبه للهدف إلى جاء من أجله، ويسعى لصنع ثقب صغير تنفذ منه شمس الحياة.

دس الرجل جواز السفر في صندوق السيارة ونزل.

طرق الباب فانفتح وأطل منه وجه غامق اللون، منكوش الشعر، وجهّ إليه الحديث في تبلد واضح.

– خذه وفهمه كيف يعمل!

وانطلق بسيارته عائداً.

لم تتح له فرصة أن يستفسر عن شيء، أحس بوخزة في صدره كسيخ حديد محمي يسوخ في اللحم، وضع يده على صدره وكتم آهته ودخل. واجهه البراح الواسع، وعدد من الأسرة ذوات العمدان الطويلة.. دار به في المكان فلمح حجرات صغيرة على الجانبين، بها سرر وكلاّت بيضاء مسدلة.

مشي أمامه في بطء حتى وصل إلى باب غرفة جانبية ودفعه بقدمه، كان الفراغ معتما فلم ير شيئاً، ثم استبان له الأمر حين تسرب الضوء من النافذة وتعودت عيناه على العتمة المضببة، أشار إلى سرير في الركن وقال:

– هذا سريرك.

وضحك في ضجة، وأشعل سيجارة.

– فراش وثير تستحقه.

وتابع بعد أن دفع من فمه بسحابات شهباء

– في الصيف نخرج به إلى البراح..

أخبره عن اسمه، وبلده، وموطن السكن.

– ضع أغراضك هنا، وتعال نشرب الشاهي.

سأل عن الكفيل، وعمن يسكن البيت الذي يشبه بيوت.. المقابر.

أدار ظهره وهو يردد:

– سنتحدث ونحن نتشاهي..

جلس على كرسي واطئ وراح يشرب الشاي الأصفر الباهت، لمح فجأة عقربا أسود يطل من شق أسفل الجدار. هب خائفاً وجرى ورمى بنفسه على السرير.. ضج زميله بالضحك.

– العقارب، والسحالي، وأم أربعة وأربعين والناموس شيء عادي..

وقال في غيظ: أبو الريش مليان.. يا عم سيد.

وعاد يجلس يتابع رشف الشاي.

– لا تنس أن تضع تحت قوائم السرير فوارغ الكولا الصفيح وتملأها بالماء.

أشعل السيجارة وتساءل في تردد.

– تركني دون أن يدلني على العمل:

– لا عمل محدد..

– كيف؟

خرجت من فمنه كقذيفة مارقة.

ابتسم له، وصب الشاي، وأشعل سيجارة وقدم له حبات من التمـــر وقال:

– هنا.. أنت حر، أعمل ما يطلب منك، وتاجر في كل شيء، وامتهن ما تحب، حرك نفسك، وانتهز أية فرصة.. فقط عليك أن تـــدبر راتـــب الكفيل الشهري.

توقف عن الرشف، وأمعن النظر

– أعطيه راتبه!!

– نعم.. نظير كفالته، وعدم تضييقه عليك..

خلع جلبابه، وشعر بقلبه يتقلص ويلتوى عليه.

– يؤجرني..

– لا يتدخل في شئونك ، ولا فيما تحصل عليه من مـــال.. لا يبغـــي سوى المبلغ الذي حدده..

– وإن رفضت

دقق النظر فيه. ونصحه قائلاً:

– ستموت من الجوع، أو يرميك في السجن..

مثلما يفعلون.. افعل..

وكتم الآهة الحادة.. وأدرك أنه في محنة وعليه أن يواجههـــا ويعـــود. وراح يجري وراء المال.. يمتهن كل المهن حتى يفي براتب الكفيل، ولم يعد يهمه أن يدخر شيئاً يستره– ويعود به إلى أمه.. وعجـــز عـــن مناوشـــة حلمه، فلم يجمع المال، ولم يهنأ البال، ولم يحقق الأمل.. لكن يكفيـــه أن يعود... فأمه تنتظره، وتعد الأيام لرؤيته.

ترك أبوه الدنيا في عجلة.

وحمل همّ الأسرة مبكراً، وشاهد الحي العتيق مكابداته من أجل أمـــه وأخته، عجزت الأم عن الحركة. سرح الروماتيزم في عظامها، وأيـــبس مفاصلها.. وبكت في عويل حين أخبرها أنه سيترك المدرسة ويتجـــه إلى العمل.. صمتت وناب سوء الحال عن الحديث.. ولم يجد أمخامـــه ســـوى العم «مجيد».

قال له في حنو حقيقي:

– لكنك مازلت صغيراً يا ولدي.

أمال رأسه وأخفض عينيه.

– الصغير يكبر يا عمي.

مد يده ورفع رأسه فلاحت عيناه مبلولتين.. ربت على كتفه.

– على بركة الله..

وأتاه الحظ فعرف كيف يطيع ولي النعم حتى أدرك سر البناء.

حمل وهو صغير عبئاً ثقيلاً بموت الأب. وعافر في دنياه حتى ستر أخته وزوجها.

***

لوح له تاجر الغلال فلبى. نقل أجولة القمح إلى عربة نصف نقل، أثناء عمله لم ينطق بحرف واحد، مجرد إشارة تكفيه، وشعر بإعياء شديد، وأحس بأن جلده مسلوخ، وأضحت أية حركة تسبب له ألماً... اعتذر عن تحميل عربة أخرى وطلب الراحلة، اتجه إلى نصبة «الصعيدي» وطلب شاياً.. أخرج اللفة وشرع يأكل، كان جائعاً ولم يفلح الرغيف في إشباعه.

رشف الشاي في تلذذ بطيء وشملته راحة بدنية حقيقية. أغمض عينيه فتراءى الولد مجسداً، واختالت امرأته في جمال وفاحت رائحة مياه الحموم حتى فاضت وحله... تمنى أن يحالفه الحظ فيشتري لها الشبشب وللولد لوح الأردواز والطباشير الملون.

وانقبض صدره، وتساءل: متى ينعم الله عليه بمسكن آخر؟! وتراءى له وجه معلمه.

***

ضاقت به الدنيا وشعر بوحدة قاسية.. كانت أمه مع مرضها ملاذا يأتنس به، لكنها رحلت.. وكتم فرحته حين عاد، وخاف على نفسه أن تضل، كادت الأبواب توصد إلى أن رآه معلمه جالسا يشرب الشاي ويدخن.

نهض في همة لما رآه يقترب. باحت الحركة باحترام حقيقي.. سعد الرجل وجلس.

نظر إليه متأملاً:

– هل دبرت السكن؟

وشت العين بهم ثقيل فلزم الصمت

– حصل المتضررون على غرف بديلة

خرج صوته مسحوقا

– سمعت.. لكن كيف؟

– في الإيواء أطفأ السيجارة قبل أن تكتمل.

– امتلأت.

أخرج المعلم من حافظته كرتا باسمه، حين تناوله ابتسم وقبله

– اذهب إليه فمكانته في الحي معروفة..

سيدبر لك غرفة.

حين وطأت قدماه سلالم الإيواء انقبض صدره..

وظل يحادث نفسه.. كيف يحيا في مكان مفتوح لا أسرار فيه لأحد ولا خفايا تحتجب؟!

وحين رآها أعجبته

عقد عليها، ونقلها إلى حجرته، وسرعان ما تكورت بطنها وأنجبت، وظل يحلم بمسكن يصون له كرامته ويحفظ حرمته حتى كبر الولد.

***

أرعبه صوت الأنين بترجيعاته الحزينة، فتوقف فجأة في حنية السلالم، زاحمه رعب حقيقي يأتي من أسفل.. كانت الآهة.. تخترق الروح وترعشها. لم يحسن بمثله إلا لحظة عودته من الغربة ووقوفه على طل البيت القديم الذي أطاح بأمه.. شعر أن الصوت الناعب يفلت من

الركام، والردم، والتراب ويولول، ويحتد في وجهه ويدينه، ويذكره بالصوت، بنبراته التي اتخذت لون الدم القاني، كده تهرب ياسيد وتسبني!!

ماتت، قبل أن تدرك العذاب الذي لقيه، والهوان الذي تحمله.. وتمتم في ألم حقيقي: لكل أجل كتاب ليرحمها الله.

توالى الصوت، وتعجب ألا يستيقظ أحد لنجدتها، ربما لأنه جديد في المكان، وربما لأنهم تعودوا ترجيع الأنين، وتوالد الألم، الصوت يعطي الشعور بالحسرة وهو يتمدد بطول النفس حتى يتلاشى.

المرأة تحتاج إلى معين، كيف يتصرف وهو الجديد على المكان يتحسس الخطو ويتلمس العلاقات في حذر.. يجب ألا يغامر، كفاه معاناة ومخادعة.

ما الذي جعله في الهزيع الأخير من الليل يهجر فراشه ويتزل، كان من الممكن أن يتحمل الحلم القابض على الصدر، ووجه الأم المناوش حتى الصباح، لكن وحدته التي طالت استدعت الوجوه المحبوبة. تطوف سماء الغرفة.. ملأت الفراغ وشغلت المساحة، وحرمته من النوم، لماذا يزاحمه وجه الأم الداكن ووشاحها المطرز بالخرز؟ حدث أنها قلقة، وأنها جاءت لتؤنسه، أو تذكره..

فضل أن يتزل إلى الجامع، يصلي الفجر، ويدعو لها بالمغفرة، ويختلس الكري مستنداً إلى المنبر حتى انبلاج الصباح.

فعلها ونزل، هرب من وجه الأم المزاحم ليواجه الأنين المرعب لامرأة لا تجد أحدا يسعفها.. قد تكون مريضة.. من يدري! ولعل الواحدة تأكلها وتسلخ جلدها. هل تواجه ما واجهه من غربة؟ وكيف تغترب والأهل حولها؟..

عليه أن يلبي. لن يواجه أقسى مما واجه في حياته

واتته الشجاعة وعزيف الليل كأنه صوت الجان يبعث على الخوف.. وتعجب من الغرف التي لا تكف عن الصخب وقد خلت من الحركة وضنت بالمودة.. ونزل.. كانت القدم تتحسن خطوها وتؤازرها اليد القابضة على سور السلالم.

لا يخاف كثيراً من هذه المواقف لكنه يخشى أن يكون بها مسّ..

في بسطة السلم الأخيرة وصلة الصوت، تكاد نبراته توقف شعر رأسه، ما كل هذا الحزن!!

كده تسيبوني لوحدي..

وتسمرت قدماه. أيكون وجه أمه يخادعه!

إنها العبارة التي واجهته أمه بها.. التوى قلبه، وتمنى أن تتفهم الموقف.. فهو لم يهرب كما رأت أمه.. وندت عيناه بالدمع – فجأة– كان يتمنى لو صحح الأمر لأمه، لكنها هربت منه فجأة وماتت.

دفع الباب الموارب ودخل

وكأنها كانت تنتظره فأسرعت تقول

– النقرس هدني.. آه.

ما بال كل شيء يخاصمه.. ترى هل تعود أمه بأوجعها أيضا!!

أخفت وجهها بين يديها ولاح التقلص يقبض على أعضائها فاقترب.

– عندك دواء؟

– الداء أقوى.

– ونظرت إليه

ظلت ترمقه في حنو بادر، والماء ينبت من العين ويتجمع ثم ينهل كالقطر.

– الداء هنا

وأشارت إلى القلب، وظل صامتاً، يجذبه إليها هذا الوجه الداكن المتألم.

– الوحدة تقتلني.

مسحت دمعة نافرة ورمقته

– ربينا وكبرنا ولما كبروا أتوا بي هنا.. يتركونني في الإيواء ولا يسألون عني بالشهور.

لفظها فجأة كأنما يتلهف على معرفة هؤلاء الأنذال.

– من؟

– عيالي..

وراحت تتحدث عن الاهتمام بها. في البداية.. كانوا يأتون ثم قلت زياراتهم لكنهم كانوا يرسلون الخادمة، ثم كفت عن المجيء..

كانت المرأة متقدمة في السن، داكنة اللون، يحجب شعرها الأبيض منديل مطرز بالخرز.. لمح في نظرة خاطفة، صحيفة ومجلة ووردة بيضاء مغمور ساقها في كوب ماء.

طالبته أن يأتي بالصحيفة.. أرته نعي زوجها وصورته.

– كان وسيماً.

مات ولم تظهر برأسه شعرة بيضاء.

مدّت ساقها، واعتذرت، وشكرت له تفضله.. وهومت.

– كان يحبني فربيت أولاده على الحب.. لكنهم جحدوني– استقل الولد بالشقة، وسافرت البنت إلى بحري وجئت إلى هنا.

تنبهت إلى أنه ظل واقفاً الوقت كله وهي تتحدث، التمست منه أن يجلس فجلس.

– هل تسكن هنا؟

وهو ينظر إليها في ود حقيقي

– ساكن جديد.

– في أي دور؟

– الرابع

تملته قليلاً وشعرت بدفء تجاهه وعطف حقيقي.

– أنت صغير يا ابني على الإيواء.

– أتي بي الزلزال.

تنهدت في عمق. فأحس بأنفاسها حارة كاوية.

– ليس أقوى من زلزال الأولاد.

سألته وهو يلملم نفسه.

– صوتي وصل لك في الرابع!

– كنت نازل.

– بالليل كده.

– الوحدة قاتلة لشاب مثلي.

– وللعجوز أيضاً.

حكت له عن أيامها الأولى، وعن شقتها في الحي الراقي، وعن امـــرأة ابنها التي تمكنت وسيطرت، وعن تضحيتها من أجله، وحدثها عن أمـــه، لا تبرح منامه، وغربته التي خدع فيها، وأخته التي لم يرها منذ تزوجـــت، وعن الحال المعوج.

وتنهدت هذه المرة في عمق حقيقي أشعرها بنوع من الارتياح.

– ياه.. الدنيا قاسية على الصغير والكبير.

– الحمد لله.. على كل حال.

سألته في تودد– هل تصعد لتنام.

– سأصلي الفجر أولاً.

– إذن ادع لي...

واستلقت على السرير.

وكان طيف ابتسامة شفيفة ترف على الوجه.

ومدت يدها وأغمضت عينيها..

انحني، وسترها بغطاء نظيف.

وانسل نازلا صوب الجامع.

***

حين رشف رشفته الأخيرة لمحها تمسك الديك وتهزه، أسعده أنها تبيع، و«الرّجل» تأتي إليها، كان الديك يعافر، ثم استسلم وابيضت عيناه، شاهدها «تفاصل».. وتساوم في إلحاح، والمرأة التي تشتري تروح وتجيء، تلمح الديك ، ثم تستدير، تصر على الثمن الذي تريده، وتلمس رقبته، وريشه الزاهي المنقوش.. وباعت، خبأت المرأة الديك في السلة ومضت.. طوحت طرحتها، وأحصت الثمن الذي تريده، وتلمس رقبته، وريشه الزاهي المنقوش.. وباعت، خبأت المرأة الديك في السلة ومضت.. طوحت طرحتها، وأحصت الثمن مرة أخرى ودسته في جيبها.. وجلست، أخرجت حفاناً من القمح وبذرته.. هاجت الدجاجات، وقفزت الديكة وخبطت بأجنحتها، وأذنت.

نهض فاستقام جذعه فبان فلوحت له.. لبى النداء وسار إليها.. قبضت من سيالتها وأعطته.

– من أجل الولد

دقق النظر فيها انحسر من السراويل الطويل.. ابتسمت وشدت الثوت ووشت نظرتها إليه بأنها تدرك المعنى.. تعلم أنه يطيب خاطرها، فمن في حالتها تفكر في نفسها!! وإن فكرت فهل يرحمها الصغار ويعطونها فرصة!

ودعته لشرب كوز من العرقسوس، أعلنت الصاجات عن نفسها، وعلت الرغوة المزبدة، وارتشفا معاً.

– كيف تسير الأمور.

– كما ترين.. أخرج كل يوم إلى الأسواق بحثا عن عمل.

مسكت بحلق القلة، ورشت الماء حولها

– الناس ما عادت تبني

– لم أمسك المسطرين من سنة

وراحا يتحدثان عن الذين غابوا..

وعمن فر بعيداً عن الإيواء وأنقذ نفسه مبكرا من الموت البطيء، اندهشا مما يجري في المساكن ليلاً ونهاراً وغفلة الشرطة عما يحدث من ضلالات، والأولاد الذين تحولوا إلي البلطجة وسرحوا في الشوارع، والأقبية، والدروب والأسواق، يتحددون سعرهم، ويفرضون الإتاوات.

– الحكومة نسيتنا

– عشر سنوات.. على أمل أن تمنحنا المسكن.

زفرت في هم حتى كادت الزفرة تحرقها، ولاح عليها كمد حقيقي.

أحب أن يخفف عنها، فهي مثلهم يحيطها العناء من كل جانب.

– وأبو العيال.. أخباره إيه؟

لم تعلق، رنت إليه طويلاً ولم تنطق. لا تريد أن تخوض في أمره. تركها منذ عامين ولم يعد.. هذا يكفي.. كسرت وراءه «قلة»، وأراحها من همه الطويل، لابد أنه «لاف» على واحدة مثله، فهو لا يصبر على الابتعاد

عن المعاشرة طويلاً.. حين يحدث يصبح كالمجنون عيناه تفطان منه، وتلاحق الرائح والغادي.. أنا أعرفه فليشبع بها.

وطفقا يضحكان ويبعدان الهم عنهما.

***

يلتقط رزقه حسبما تسمح الظروف، وها هو يتوجه إلى الحاج بمجرد أن لمح الإشارة، عكس فص الخاتم الذهبي شاع الأصيل، فتيقن أن اليوم مبروك، والخير سيطوله.. تؤذن الشمس بالرحيل ونسائم الغروب تهب فتنعش النفوس. حتى إذا هبط الليل يتردد الدعاء بالصة والستر من نفوس رطبها شعور دافئ بالمودة هذا موعده مع النحر، ينحر الذبيحة والنهار يلملم ضوءه، حتى إذا جن الليل وبدا يسفر عن سره، يكون قد انتهي في خفاء العتمة من توزيع الأنصبة..

عادة لم تلفت منه منذ أن عرف النحر، يقدم عليها فرحاً، يجمع حوله من تطوله عيناه حتى باتوا معروفين لديه.. ويرسل إليهم أن تأخروا. حين غاب ولده طويلا في بلاد الغربة دون أن يستدل عليه نذر لله أن ينحر أول كل شهر عربي شاه أو ماعزاً، احتساباً لله إن من الله عليه بعودة الولد.

والولد يعلم الثراء الذي عليه والده.. طلب منه السيارة والشقة والمصروف الوافر.. ربت الحاج على كتفه مبتسماً واشترط أن يتزوج من ابنة عمه فهو أولى بها، وبثروتها، وزواجه تدعيم لأواصر القربي.

تململ الولد، ثم رفض، وأصر على رأيه.

تجاهل الحاج رغبته وأصم أذنه عن إلحاح الأم، ولما نفد صبره ويئس ترك البيت، اعتكفت الأم باكية ومنعته من الاقتراب منها واشتعل الحنين في قلبه، وكاد يحرقه، إلى أن جاءه خبر ذهابه إلى إيطاليا.. كيف سافر، ودبر المال وجهز الأوراق دون أن يعرف!!

ظل ينتظر طويلاً، احتواه الحزن حتى كاد يضيع.. لكنه لم يفقد الأمل يوماً. بعد صلاة الفجر أخذته سنة من النوم.. كان مضطجعاً، والكائن الشرير يعلوه، ويسيطر عليه، قرناه كقرني الوعل، وجهه وجه جدي أسود، شعره فاحم وملبد.. ظل يجاهد أن يتداخل.. وهو تحته يئن، ويزوم، ويدفع بساعديه كلكله الخشن.. يعي أنه يصارع عدوا، لكنه عاجز أن يصرعه.. حتى إذا أوشك أن يستسلم جاءته لمسة في الكتف. رمق صاحبها فرأى الولد يدير ظهره ويبتسم، نتر جسده الهامد، ومسح شلال العرق واستعاذ بالله.. وأعلن في الصباح أن عودة الولد وشيكة.

في المسجد وهو يؤدي صلاة العصر بلغه نبأ عودة ولده..

فاضت الفرحة حتى راح ساكنو الإيواء يترددون على بيته الفخيم المطل على النهر الصغير أسبوعاً بطوله، يتعشون ويأخذون معهم لأولادهم.

أسلمه الجدي وذهب للصلاة.

صلب عمودي الخشب، وربطهما بحبل سميك، بدوا كساقين مفرودين ومغروزين في وجه الأرض، لف الحبل وأدلاه وعقد العقدة، ووسع لها وتيقن من متانتها.

تتدلى أعواد البرسيم من فم الجدي السمين.

وهل عليه يفيض بشراً..

انتظر حتى مضغ البرسيم وابتلعه، قدم الماء في سطل صدئ، عب حسوات قليلة ماء، مسح على ظهره فتوقف، رفع رأسه وشد أذنيه وخبط قوائمه ثم دقق النظر فيه، مط عنقه ناحية البرسيم فحمله وطرحه أيضاً، أرقده على جانبه، بسرعة ربط قائمتيه الخلفيتين وقيدهما بإحكام، استسلم الجدي لمصيره، وأذعن، عيناه ترنوان في هوان وكف فكه عن الحركة وانتفخت أوداجه، طرح على رأسه غطاء فحجب عينيه.

طوى بنطلونه، فعلا صوت الحاج بذكره أن يسمي بالله ويكبر ثلاثاً ويصلي على النبي.. لمعت السكين في الضوء الشاحب وبحزة والحدة فصل الرأس، واندفع الدم كنافورة.. حمل الجسد الهامد ورفعه وعلقه في عقدة الحبل وأحكم قيده.. ومشت السكين، في رهافة تفصل الجلد عن اللحم.

يتفكك الجسد.. الكرشة، الكبد، المصارين، القلب، الفشة، الكوارع، الرقبة، الزند.. ويخلص اللحم من «الشغت» والدم المتجلسط.. ويتلقى

الطشت اللحم قطعة قطعة، وعضوا عضواً.. حتى بات اللحم صالحا للتوزيع.

يعرفون الموعد لا يفلتونه أو ينسونه..

والحاج يلقي نظرة أخيرة على صف النساء من العجائز والفتيات والصبية الصغار.

وقبل أن تمتد يده بالعطاء يكون قد أكرمه فيعطيه نصيبه، ويدخر لنفسه الكبد.. يأخذ منها فصا مدمماً ثم ينحيها جانباً.. هي كل ما يحصل عليه من لحم الذبيحة.. ويمر عليه المحتاجون فرداً فرداً، يرددون الدعاء بطول العمر والستر في الدنيا والآخرة.. ثم يقبضون في متعة بادية على نصيبهم.. ويهرولون إلى مسكانهم.

***

أثناء العودة تذكر وعده لولده.. عليه أن يدخل الفرح إلى قلبه، فيشتري له ما يحب.. هو الذي خرج به من الدنيا، صغير لكنه، سينمو حتى يطوله ويزيد.

أمه تتمنى أن تنجب مرة أخرى حتى يشعر بالأنس ويبعد عنه عذابات الوحدة، وشعوره بالضجر، ينال الحب كله منهما، ويفيض عليه جده بما يحب، لكنه يظل.. يبحث عن بنت «عيوشة» الشغالة، حتى إذا وجدها برقت عيناه كأنه قبض على شيء عزيز ضاع منه.. يكتشف عالماً بهيجا لا يجده في حجرته.. يهبان ضاحكين معاً، كأنما على موعد.. تخرج

الضحكة كفقاعة من السعادة، ترن مجلجلة.. وينتقض الجسدان انتفاضة البراءة.

يخطان في التراب طرقا ودروباً، ويبنيان من الحصى بيوتاً، ومن الأوراق مراكب، ومن مصاصات القصب مراتب ووسائد.. ثم يمرحان مع الجراء الصغيرة.. وتظل البنت تطوف بالولد.. حتى إذا أذن الشيخ لصلاة المغرب تخرج الأم باحثة عنه فتجده ساكناً وديعاً مع البنت في صحبة جرو أسند رأسه على قائمتيه وبدا وديعاً مثلهما.

ما الذي يمنع الإنجاب مرة أخرى!.. خصبة كالأرض السوداء الطيبة التي تنتظر الري والبذر ليتشقق الأديم عن نباتات خضراء وارفة.. وهو العفي القادر على الاستزراع.. فما الذي يمنع الإنبات!

ويتساءل: لماذا نحن والحجرات تغص بالعيال!

ومهما لبست العقيق الأحمر وغمست الصوفة، واستحمت لحظة اكتمال القمر، وتبخرت بالصندل ومرخت جسدها بالخروع.. فالرحم لم يعد يسمح للماء أن يتسرب ليروي..

وظل يتساءل لماذا نحن.. حتى أسدل الليل ستاره.. وأغطش الكون.. همس في وجع شفيف، غداً سأحقق حلمه وأشتري له مطلبه.

-2-

رمقت ولدها الصغير وهو يتقلب على فرشته، ودفعت الباب وانحنت على سور الشرفة الممتد بطول الدور كله وينتهي عند دورة المياه، بدا الجسد في انحنائه منحوتا، تلمع سمانة الساق كلما شبت على أصابعها، ازداد انحناؤها فجذبت طرف الثوب تحت الكوع فتحدد الخصر والفخذ. قديما كانت العيون تتلصص وترسل نظراتها تتلمس الجسد، أو ترقد عليه.. وبرمت الكواهل يطالبنها بالتحشم لكنهم اعتادوا، فتجاهلوا بحكم الزمان وتحرر المكان.

نادت على والدها.. ليصعد ويشرب الشاي معها.

اليوم راحتها. تطبخ. تنظف الغرفة، تغسل الملابس، ثم تختلي بنفسها، وتقتنص وقتا ساكناً تستحم فيه، لا تأبه بمن يستمع إلى نغماتها الشاردة، أو من تستعجلها، فهي لا تقاوم رذاذ الماء المتناثر على جلدها الناعم، ولا تضمن فرصة أخري مواتية.

وحين تنتهي تهفو نفسها إلى الدعة وشرب الشاي.

فتحت دولاباً صغيراً، وأخرجت صينية تلمع، ورصت فوقها الأكواب، والتقطت عبوة السكر، ومسحت الملعقة بطرف ثوبها

ووضعت البراد على الموقد.. وراحت يداها تجففان خصلات الشعر وهشت للولد وهي تراه يضحك ويعكس ضوء النهار ببياض أسنانه.

بقية الأسبوع تذهب إلى بيت الحاج في الطرف الآخر من النهر، ينفتح الباب، وتستقبلها الردهات الواسعة.. تعرف طريقها، فتخلع ثوبها، وتلبس آخر قديماً وهبته الحاجة لها، ترفع جانبا منه تدفسه في تكة السراويل فيعلو على الركبة، تقمط شعرها ويأخذها العمل، الكنس، النظافة، الغسيل، نشر الملابس، رتق الجوارب والشملات..

تقبل عليها الحاجة فتدس النقود في كيسها وتنطلق إلى السوق.. تشري الخيار، والطماطم، والخس، وتنتقي أعواد الكرفس باهتمام فالحاج يفضله من يدها، تفاصل في شراء الفاكهة والبقول، وتختار الملوخية عوداً عوداً وتخبر طزاجة الساق والأوراق، حتي لا تغضب الحاجة وتنهرها حين تري أوراقا ذابلة، أو أعواداً منقصفة.

فهي التي ستقطف الورق الأخضر، وتبعد الصغير الناجم فهو يضر المعدة ويضفي مرارة على الطعام، وتقف في همة بادية كأنها مقبلة على عمل جلل، فتسكب البصل المحمر في الزيت على الملوخية، ولا تستريح إلا حين تسمع «طشة التقلية»، فتتباهى قائلة: هكذا تكون الملوخية!!.

العناء الذي لاحقها لم ينل من الجسد الممشوق، بل أبقى على طزاجته فخلا من الترهل، وأكسب الفخذين صلابة والصدر اكتنازا ونفوراً،

لكن الكفين يبدوان في العين المحدقة خشنين.. فيروح البصـــر في تهويمـــة طويلة.

وحين يؤذن العصر، وبعد أن يفرغوا من طعامهم، تكون قد تأهبـــت للعودة، في آخر كل أسبوع تطيب الحاجة خاطرها وتمدحها على عملها، وتكرمها بمنديل، أو شبشب، أو ثوب قديم ضاق عليها أو حلوى للولد.. وتطالبها بأن تصحب ولدها معها ليلعب في الجنينة.

تضع لها الطعام في كيس، وتقبض على جنيهات قليلة وتدسها بيـــدها في جيبها.

تتخفف من ضغط المواجهة فتتمانع لكن الحاجة تزغدها في صدرها.

– المرة القادمة أدخر لك ثوبا جميلاً.

ويفيض الوجه ببهجة حقيقية وتدعو لها بالعمر الطويل في كنف الحاج رجلها الطيب.

تمضي الحياة بها ساكنة حيناً، صاخبة حينا آخر، يضيئها نـــور يـــروح ويجيء، يكشف عن لحظات تفيض بمتعة خالصة أو ألم عميـــق يصـــعدان ويهبطان في متوالية لا تخطئ الحساب.

في الليل حين يغزل القلب قماشته الدافئة ويدثرهما.. يتبدى وجههـــا متألقاً، ومتهللاً، وخاليا من الكدر، وينضح بعسل مصفى وتهب السخونة فتحيلهما طائرين يحلقان في سماء الغرفة.. وفي الصباح يقـــبض الإصـــرار

على ملامحها.. تزم الشفتين، وتشد المنديل على رأسها.. وتلم الثوب عند الرقبة.

وتترك حلمها عند ولدها.. وتمضي إلى عملها..

-3-

في الطريق إلى غرفته كانت تبصره يميل ناحيتهم ويرفع رأسه ويرنو في وداعه، تعرف أنه يتحجج بالسؤال عن الوالد ليرها فتسرع. في غيبة الأب، خارجة لتقابله، لم تدع له فرصة أن يدخل، أو يتحادث في مقدمة الغرفة فيتم اللقاء كالمصادفة، يبتسم فتضحك فيأخذه الحياء

ويهل عليه طيفها فتبدو كأنها تنتظر، يمد يده فتستريح أصابعها في باطن الكف الدافئ ثم تسحبها في بطء وهي تشعر بنبضات القلب تدق في الشرايين، يتملى عينيها الجميلتين وصدرها الذي يسفر عن ثراء حقيقي.

تنبض عروقه فجأة ويفور دمه، فيعلم أن موعد العودة اقترب، تعود من عملها في البيت الكبير والشمس تضرب إلى الصفرة، والأفق يتشح بنسائم رقيقة تجلب معها رائحة الحقول البعيدة.. تمل بوجه مشرب بالحمرة وخطوات مهرة واثقة، يحف بها عن قرب فتغض الطرف حياء، يتساءل.

– لم أرد الوالد منذ يومين

– أنت لم تصل بالجامع إذن!

لا يغيب عنه أن الأب يظل ملازماً الجامع منذ صلاة المغـــرب حـــتى صلاة العشاء، وبد أن يطمئن على الأنوار، والأبواب، والميضـــأة يغلـــق الباب ويعود، يوجعها نظرة الانكسار التي تطل من عينيه أحيانا، مـــع أن البريق الخاطف حين يتحدث عن الوحدة والموآنسة والبحث عمن يشاطر القلب، غرفة القانية.. يأخذها بعيداً، فتظل تطوف وتحلم، وتتساند على رمش العين المخضل بالبلولة..

طيب، لا يلف، ولا يدور، يعطيك نفسه، كأنه الصدق.. أسرها. كما أسرته.

ظل يراقبها، عينه عليها، يناديه خطوها، وعطرها النافذ..

راقبها في طريقها إلى السوق، وأمام الباعة، وهـــي تنشـــر الغســـيل، وتغسل الطباق، وتحادث «القابلة» على شاطئ النهر الصغير، يتابعهـــا في الذهاب أو العودة يكمن في المنحنى حتى إذا مرت رأته صـــاعداً فتـــرتج حياء.

يمضي إلى أطراف الحديقة ويتسلل في دهاء، كانت تشعر بأنفاسه تفوح بالأرجاء كالعطر: ترتعش أطرافها، وتروح في تهويمات متوالية، وتدرك أن رائحة الرجل تطوف بالمكان، تملؤه ذكورة وتدعوها إلى المجيء.. تنده لها، تلتمس الأعذار للذهاب، وتمضي كالمغيبة، والعقل يتخيل الأمكنة ويرسم الصورة له.. بحجم خيالها العريض.

تجده جالساً تحت جذع الشجرة، أمامه النخيل الأخضر والأعشاب الخضراء، يرتدي القميص الزهري المشجر، والبنطلون الجينز الكحلي الباهت، فهو يحرص على حسن الهندام مخمن أن عمله بالمعمار لا يسعفه كثيراً في انتقاء الزي المناسب.

كاد قلبها يطير وهو يحيط كفها بيديه..

خرج صوته مغموساً بماء الفرح فانتشت. همس في صوت خفيض منغم.

– سأخطفك خطفا، ولا حصون الدنيا تمنعني عنك.

وجلت غبطة واندهشت وصكت صدرها.

– تخطفني يا سيد.

تأملها وهي تخبط برموش العين.

– على متن جواد أبيض.

وراحا يلملمان حبهما ويواريانه خوفا من العين ولسان السوء.

***

تيقن «سيد» من قلبه وقرر الذهاب..

أخبر الشيخ برغبته في الزواج من ابنته، تأمله الرجل طويلاً، فرد الحصير ثم ارتدى ثوبه، وأغلق باب الجامع وسحب نفسه عائداً، لم يتوقع

الأمر نزل المطلب عليه داهما، لم يترك الولد فرصة للجدل، أطلق رغبته كالرصاصة المدوية.. يا حاج لي الشرف أن أتزوج كريمتك على سنة الله ورسوله، وسأضعها في عيني، وأجعل قلبي لها سكنا..

هذا كلام محبين، يخرج من القلب، لكنه ليس من يريده زوجاً لابنته، يكفيها ما لقيته من عناء منذ وفاة الأم، يفضل لها رجلا على درجة من الغني يغطي حاجاتها ويبعدها عن الخدمة في البيوت، ومضى دون أن يفوه بكلمة.

في المساء وهي تجلس على حافة الكنبة نظر إليها في تأن فضح قلقه، وأدهشه السكينة التي تملؤها، ونظرة الغياب في عينيها وقال في صوت بادر:

– سيد طلب يدك اليوم.

رمقها بركن عينه اليمني فلمحها تجاهد البهجة حتى لا تسيل حولها.

احتد وأدرك أن الأمر مرتب بينهما.

– اتفقتم من وراء ظهري.

تسرب إليها الخوف، وقبض عليها الخجل.

– لك الأمر في الأول والآخر.

– منذ متى؟

طأطأت رأسها ثم اشرأبت فجأة.

– ربيتني على كرامة النفس وحماية الجسد.

– أنا ابنتك. أم نسيت.

راح يدرس الحالة، ويقيس ردود الأفعال، فهو لا يحب أن يقف عائقاً أمام حياتها التي اختارتها، لكنه يجب أن يتيقن، فالمرء حين يحب يغطي الهوى عينيه ولا يبصر جيداً، ولكنه أيضا لا يحق له أن يوافق لمجرد إرضائها فمستقبلها مهم بالنسبة له، وضروري لها وعليه أن يجنبها مزيدا من العناء الذي تقاسيه.

– أتحبينه؟

لزمت الصمت وشعرت بأنه يضغط عليها فهبت واقفة تكتم نحيبها وتضغط «نهنهتها» التي ينتقض ليها الجسد، شربها بعينيه ولم يفو، رق لها القلب، فهي حبه، وعينه، وحلمه الذي كاد يأفل... نقهض واحتضنها، احتواها بذراعيه، وأحست بحضنه الحميم يدفئها فراحت تنشج في قوة حتى رجته رجاً، وظل محتفظاً بها حتى هدأت، ربت لعي كتفها وطيب خاطرها وقال كأنما يلقي من على كتفه حملاً ثقيلاً.

– يفعل الله ما يشاء.

كان قد شغلها وملأ الفؤاد.

صاحبها في الصحو والمنام..

وخشيت من والدها، خافت أن يكون قد رتب لها أمراً في الخفـــاء.. فمعارفة كثيرون، يترددون عليه في الجامع، يؤذن لهم، ويؤمهم أحيانا ولن يعدم أن يجد من بينهم واحداً يليق بها.. وحدود اللياقة عنده هي المـــال، والخروج من مساكن الإيواء.

وأن تعيش في بيت به دورة مياه مستقلة، وباب ينغلق عليها ويســـتر خصوصيتها.

باحث بمخاوفها إلى «أم توحة» القابلة..

طيبت خاطرها وأخبرتها أنها لن تنكسر أحلامها، وأنهـــا وإن كانـــت توافق والدها في راغبته، وتفضل لها البعد عن الإيواء بناسه وهمومـــه، إلا أنها لا تقف أمام الحب.. ولا تقوى على مواجهته، ولا تحب أن تقصـــف القلوب الهائمة في براح الهوى.

التجربة غريبة هذه المرة، عادة يحدث الأمر لجلب الحب عـــن أحـــد الطرفين لكن الطرفين محبان، ويسعيان إلى الزواج.. عليها إذن أن تعمـــل جاهدة على ترقيق قلب الأب وانتزاع الموافقة منه.

ناولتها المنديل، والطاقية..

طلبت منها أن تبوح برغبتها، وتنفث فيها سرها وهواها..

وضعتهما على عينيها ودفست وجهها وراحت تتمتم..

دعت الله أن يبعد عنها السوء.. ويحقق لها الفأل الحسن، ويساعدها على الزواج من سيد.. ويبعد عنها الحسد الذي يفلق الحجر، ويرقق قلب الأب ويزيح من دماغه ما يفكر فيه.. ويوافق على زواجها.. وتأجج الفحك واتقد، وتوهجت النار.

وراحت أم توحة، ترمي بالبخور، وحبات الملح وعلت سحابة الدخان وطافت بالمكان حتى عبق تماما، ظلت تردد الأدعية وتغسل الأتر بالبخور.. وتهمس في ابتهال.. اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأنت جعلت الصعب سهلا، سهل لأمتك بنت أمتك زواجها وأبعد الشيطان عنها، وصن ختمها من الحرام، واغرس في قلب الأب محبته لسيد، وعبدك الذي يحب أمتك.

وانزع من دماغه اعتراضه، وأبدله بالموافقة، بحق السيدة والحسين وآل البيت، وبحق الحب الذي زرعته في النفوس، وبسر.. طسم ونون.. أغلق يا ربي باب الشر وافتح باب الخير.. وساعد مبروكة على الزواج من سيد.. على سنة رسولك الكريم.

ولم تكن قادرة على استيعاب الموقف..

كانت ترتجف وتبكي، وتنتحب وتشهق..

حتي إذا انتهت مسكتها من ذراعها بقوة وقالت

– يلبس الطاقية قبل النوم.

وتضعين المنديل تحت المخدة.

وانتظري الفرح.

***

في غبشة الليل نقر نقرة خفيفة، فتحت الباب فوجدته أمامها واقفا لا يتزحزح، نطقت باسمه في دهشة خطفت قلبها.. وجمعت في عينيها أحلام الأمس:

وقالت في حدة:

– أين كنت؟

– كنت لابداً له.

– من!

– للحاج.. مؤذن الجامع المحترم.

خبطت صدرها واستهجنت حديثه، خافت أن يكون قد فكر في شيء يسيء إلى الأب، أو يصيبه بالضرر، زمت شفتيها وتبرمت، وطوحت بيدها.

رقصت الفحرة داخله فلم يقو على كتمانها فرقص.. كانت السعادة تفيض حتى كادت تغرقهما.

كبت وجهها كله عليها وانتظرت، العين في العين، والشفة تقرأ خلجات الشفة، وتأمل الوجه الوضيء والرقبة السارحة، والشعر الأسود الساكن على الكتف، والشجن اللذيذ الذي يصنع لهما خميلة يلجان فيها ويستحمان.

وراح يرقص، ويتلوى.

والتوت الرءوس، وراح الصغار يقلدونه، ولم يأبه بأحد، حرك الذراع، ونتر الساق، وقفز في الهواء.. وهي تزعق تطالبه أن يعقل، وأن يخبرها بشيء يريحها.. كيف يلبد له، ويرقص، أمرته عيناها أن يكف وأن يلملم فرحته ويخفيها إن فرح حقيقة، وألا يعطي الفرصة لألسنة السوء..

لكنه تمادى.. وظل يرقص.

تنحت قليلاً، ومسكت بالباب. كادت تهرب من الموقف وتدخل لكنه معها بقوة الذراع، وحدة الأشعة النابعة من جسده كله حتى أوشكت إرادتها أن تنحل أمام هذا الذي تراه ولا يقاوم.

ونطق فجأة، خرجت العبارة كالشهقة التي لا تجد لها طريقا.. غير جذب أنفاس الحياة.

– وافق ع الجواز.

تملته لحظة.. وتجمعت الأمسيات، واستعادت الأحلام والفراشات المحمومة، وأغصان الشجر المدلاة تسترهما، وبساط النجيل يستقبل

همسهما. والنجوم تخفق تبارك الهوى.. ارتعاشة القلب، وانقضت عليه.. واحتضنته.

لم تبال بأحد.. ولم تأبه للصغار.

وانهل الدمع من عينيها كشلال، واحت في غيبوبة النشوة، والصـــغار يصفقون يصيحون.

– بنت الشيخ بتحب.

ودخلت مبروكة إلى الغرف.

فتحت النافذة، وتلقت نسائم أول الليل، وفتحت قلبها، وحدقت في السماء، وأحصت النجوم التي رافقتها وبحثت عن هذا الأحمر القاني الذي بث فيها الأمل، ودعاها إلى صحبته كل ليلـــة، وألا تمـــل الرحلـــة وإن طالت.

واسترخت على الفراش.

حلت جدائل شعرها، فتبدى الوجه بدرا..

وخطف الأفق عينيها، وراحت ترنو إلى البعيد، تبحث عن نجم يضوي بنور قوي ونافذ، يمضي في رحلته ويدعوها، أن تقبض على الضـــوء، ولا تفرط فيه، حتى تقوى على مواجهة الزمان، وتتمكن من تحقيـــق الحلـــم الذي ملك عليها أقطار النفس..

-4-

أنهى الصعود واستدار يخب في جلبابه. اكتسبت خطواته طابع العادة. تطل الوجوه تلقى التحايات وتتلقى الدعوات، ويتوقف السائرون للسلام، وبدوا كما لو كانوا يخطون معه، معروف لديهم.. عنده تنفتح القلوب، وتنفك الألسنة، وتنكشف الأسرار.. تلجأ المرأة إليه فيريح صدرها من الغل والغيرة يؤنس نفسها ويستل وساسها بحديث طلي يرطبه بآي من القرآن وحديث النبي وحكمة الأولياء..

هش للصغار فراحوا يلتفون حوله ويهمهمون، وقبضت الأكف على حبات الحلوى.. والتمر..

يحرص على البخور نهار كل يوم، تفوح غرفته برائحة طيبة وأدخنة الصندل والجاوي والمستكة، تتسرب الرائحة إلى الغرف الأخرى فتنفتح النفوس وتتشقق.. وتروح النسوة وتجيء، يدعونه إلى الغرف ويطالبنه بتشريفهما، وينتهزن الفرصة ويفتحن صدورهن ويستحممن بالعبق.

يخفف عليه الشعور بالوحدة التي تتسكب على النفس والليل يدثر المساكن ويلفها في قماط مشدود من العتمة.. وتظل أضواء الشمعات تنكسر على طلاء الغرفة الباهت فتشكل أشباحاً تصنع رهبة تشمل الروح.. وترجف نفوس أصحاب الحاجة وهم يلقون أمامه بهمومهم.

يتركون في الغرفة الشموع والحلوى، والبخور، والبقـــول، وأطبـــاق البليلة.. وتجتهد ابنته في تصريف الطعام بعد أن تنال ما يكفيها.. ومع أن الساكنين جميعا يحتاجون إلى هباهم، إلا أنهم يؤثرونه بعد أن صار ركنا في ساحتهم المليئة بالهم والوهم والفرح الشحيح.

يعرف الدرب الترابي خطوته المتأنية، وهو يتلقى أول خـــيط الضـــوء البازغ من هالة الفجر.. في طريقه نحو المسجد.. وسرعان ما يعلو صـــوته بالآذان.. تتعالى تكبيراته وتسبيحاته، يتردد الصوت في تنغيمات شـــفيفة ناشراً صفحة البكور، وطارداً خدر النوم، وداعيا إلى طلب المغفرة.

بعد الصلاة يكن أول من يقف أمام باعـــة العطـــارة، يهـــل عليـــه فينهضون، وتنفرد ملامحهم ويبتهجون، قرأ الفاتحة، والمعوذتين ويـــدعو.. يختار البخور بعناية، ويشتري قدحاً من التمر الإبريمي وشمعات ملتويـــات وقوارير من العطر..

***

أقبلت المرأة قاطنة الحجرة القبلية، هرولت، مسحت يـــدها بثوبهـــا، ولفت كفّها وسلمت ارتكن إلى الجدار، ومسدت أصابعه شعر لحيتـــه.. وابتسم.

كانت تقف أمامه تجاهد أن تضيق المسافة بينها بمقدار ما يتيح لـــلأذن أن تسمع الهمس، فما تود أن تلقيه إليه سر يثقل خاطرها ولا يحق لأحد معرفته سواه، فعنده ينفضضن، أحمالهن، وهو وحده الأمين على الأسرار،

ما باح يوماً بسر أو لمح بشيء، ما يسمعه يدفنه في جب غويط.. ويبقى له أن ينصح، ويحل المعضلة إن استطاع ويتابع ما يجري.. ويطمئن.

رآها قلقة، متوجسة، تتغضن ملامحها.. وترتبك..

– مالك يا ستّ..

بسطت كفها، وربتت على صدره..

– وقعت في الغلط يا حاج.

تمتم في ابتهال: اللهم أهد عبادك.. احك يا عيشة.

– رمى «ابن الكلب» يمين الطلاق في المغرب..

– لا تدعي للغضب سبيلا فتسيئي إلى الناس..

تقلصت قبضتها: هذا زوجي وأنا أعلم به.

أوقعني في الغلط يا حاج، وأخشى عقاب الله.

احتد وتغير لونه: – تخطئين، ثم تشكين.. ما الحكاية بالضبط

خرج صوتها ضعيفاً:– هو السبب.

أدار وجهه ولاح عليه غضب ارتجفت له شفتاه واهتز شعر اللحية، أدركت المعنى حين رمقته فأسرعت قائلة.

– لا يذهب عقلك بعيداً..

في منتصف الليل أرادني فامتنعت.

– لا يحق لك.. تهتز السماء لامتناعك.

ردت في صوت مباغت له صرير:

– طلقني يا حاج.

– أنت غاضبة للطلاق أم لأمر آخر.

أخفت وجهها بطرف شالها الرمادي وسترت خجلا باديا.

– لم يترك لي حيلة فاستجبت له.

ضج الحاج وابتسم وكادت ضحكته تجلجل، لولا زغدة من المرأة لـــه أوقفته، ولكن الفرحة فرشت وجهه كله، وأضاء جبينها حياء فصـــمتت وظلت ترقبه.

– الحمد لله.. اطمأن قلبي.

– أخشى أن نكون أخطأنا.

مالت برأسها ونظرت إلى أسفل.

– ماذا تركنا للصغار إذن.

– هذا أول طلاق لكما..!!

– يقول إنه الثاني.. وأنا لا أصدقه.

إنه يحلف بالطلاق على أي شيء.

نظر إليها وأمعن، حتى خالت النظرة تخترقها:

– لا ينال الرجل حاجته إن لم ترغب المرأة.. المعاشرة حلال.. وذلك آخر طلاق لكما.. «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان».

اطمئني، سأقابله، وأنصحه وأتشدد معه على أيمانه هذه..

انفتحت عيناها حتى كاد.. بؤبؤ العين أن يقفز:

– يعني الأمر بعيد عن الحرام.

– حلال كله..

حين تركته لحاله ومضت وشت حركتها ببهجة داخلية، يتحرك الجسد فيفيض عليها اهتزازا كالرقص.

***

استقبله الولد صاخبا، وألقى بجسمه كله عليه قبل أن يجلس. حمله، وأجلسه على فخذه، واحتضنه وقبله أخرج البسكويت والتمر واللبان وهش الولد ضاحكا.

جاءت بالشاي ووضعته أمامه..

جلست قبالته صامتة، ترمق ولدها وهو يختلس النظر إليها، مدّ كفيه، فتناولت منه ما أعطاه جده له وأبقت اللبان.

قبضت على البراد وصبت.

أخذ الرجل يرشف في لذة واستمتاع أغراه رائحة الـــدخان فـــأخرج علبة سجائره وسحب واحدة، التقطها في خفة لا تخفي شغفه.

– الدخان يضر بصحتك.

أشعل السيجارة، ونفث الدخان في تلذذ وقال:

– متعتي الوحيدة الآن.

واحدة في الصباح، وأخرى بعد الغداء، والثالثة بعد صلاة العشاء..

خفت نظرة إلى وجهها الساكن.

– ليس في الثلاثة ضرر.

ترك الولد نفسه وهب مسرعا حين جاءه صوتها الطفولي الرقيق، قبض على البسكويت ورمح حتى كاد يصطدم بالجدار..

ضحكت حتى بانت أسنانها فأدرك أنها خرجت من القلب.

– لا يطيق البعد عنها.

يظل مبتئسا طوال اليوم إن لم يرها.

وحوّمت عتامة فأقلقت والدها.

– لو كان له أخ أو أخت لاستراح..

– المساكن مليانة بالعيال.

ولا ننام من صياحهم.. دعيه يلعب معهم.

– يلعب!

خرجت الكلمة مغموسة بهم يكوي النفس، هذا الحزن الذي لا يخيب عنها أضحى يقلقه ويدعوه إلى وقفة معها... ماذا كان يحدث لو لم تنجب؟! ظل يتأملها وهو يطفئ السيجارة، وينهي رشفة الشاي الأخيرة.

– يا ابنتي ليس فيكما عيب واحد.

– يا فرحتي!

صوّب بصره في إمعان كأنما يختبر فيها أمراً.

– أتخافين على بيتك.

قالت هازئة: – بيتي!

لمت الأكواب والبراد، والصينية.. وأخرجت درنات من البطاطس وبدأت في تقشيرها بالمقشرة الصدئة.. لما سأل عن زوجها توقفت لحظة ثم تابعت تقطيع البطاطس..

حين تطل على المرأة يبزغ الحلم الذي يطاردها وينده عليها لا يفارقها لحظة، وتبدو كما لو كانت منذورة للجري وراءه واقتناصه، ظلت تحلم، وتحلم، صباحاً ومساءً حتى ضاق الصدر.. وتعودت حتى أوشكت العادة أن تسحب منها الروح..

تلقت نظرات العيون وأغصت، وصلها الفحيح فصمت أذنها، تجاهلت خطبة هنا، ولمسة هناك.. تغض بصرها عن مماحكـــات الرجـــال في دورة المياه المشتركة، وارتجافات الشباب. لكنها نمرة شرسة إذا تمادى أحد..

تتجاهل الحكايات، وتحفر في داخلها نفقا لعلّ الحلم يباغتها ويســـكن فيه.

-5-

وضعت الأرغفة الساخنة فوق صحيفة يومية قديمة.. تشعر بطزاجة الخبز ودفئة، وتقتطع لقمة وتغمسها، في «الدقة» تلوكها في تلذذ وهي تباشر موقد الغاز..

أخرجت «كسرولة».. من الألمونيوم، رتبت البيض، والفلفل الأسود والفلفل الأخضر، والبصل الأحمر وشرعت في إعداد طعام العشاء، غرست السكين في قلب فلفلة خضراء..

وبحثت عن الكبريت.

قبل أن تشعل العود رنّ صوت خارق للأذن، يرعب القلوب، يتعالى الصوت والليل في غبشته الأولي فتقسط السكين وتصيب قدمها، لم تأبه وأرهفت السمع عليها تعلم من أين يأتي؟

والصوت الملهوف، يقطر ألما ويفيض، يأتي من الطابق الثالث الذي تطل واجهته على الرحبة الواسعة ارتعكش جسدها، وكاد شعر رأسها ينفر، فالبرغم من تعودها لحالات من الحزن والمكابدة إلا أنها شعرت هذه المرة بوجع حقيقي، عادت والتقطت السكين، مسحت القدم، انتقت بصلة حمراء مستديرة وبدأت تنزع الورق الجاف، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وطلبت الرحمة لعباده، لا يغيب عنها العويل، أو النواح،

أو العراك، فلا يمر يوم دون أن تتعالى الأصوات المبحوحة، ولا يتخلف خصام الأزواج أو مشاحنات النسوة.

ظلت تتساءل من أين يأتي الصوت المفجع؟

دق الباب فتوجست، جذبت الباب في قوة بادية ولهفة واضحة، ألقى الولد الصغير كلامه في ذعر باد.

– ابن مبروكة «مسروق».

يستدعونها كل يوم.. طلباتهم كثيرة، وحالتهم لا تسر أحداً.. مدعوة في الفرح، والحزن، والمرض، والولادة، والخصام.. اكتسبت الخبرة، وتعلمت كيف تداوي الجسد والنفس، وضعتها، التجربة في مواجهة دائمة مع الداء.

طبيت العلل والزيوت، والأعشاب، غرفتها لا تخلو من الينسون، والشمر، والخردل، والبردقوش، والحلفا بر التي تقدمها لجيرانها لإدرار البول وحماية الكلي من الماء الآسن الذي يشربونه.

حين ذهبت إلى الدخاخني وجدته يعاني من صداع شديد.. رأسه ثقيلة، وأية حركة تكاد تخلع روحه وتهوي به، وجهه أحمر كحبة الطماطم، ماذا يمكن أن تفعل، والرجل مزرود، وتوشك عيناه أن تفرا منه، لا ينفع معه الشيح أو الرقية، والدهانات، برق في ذهنها «الورداني» حلاق ناحية الشوايشة، وهو يبرك على صدر تاجر المواشي الضلالي

ليستل صداعه من رأسه، مسك الموسي، وبدأ يشرط جانبي الرأس عرفت فيما بعد أنه فصد للدم.

علمها فيما بعد كيف تفصد الدم تمسك المشرط في رهافة.. صـــاحت كأنما باغتها جني والدخاخني يتشقق ألما:

– هاتوا مدية حادة..

طهرتها، وفصدت، فاستراح.

بعدها دبر لها الحلاق المشرط، والقطن، وأدوات الطهارة..

استعجلها الولد، فدست قدميها في الشبشب، ورمت بشـــالها علـــى كتفها وخرجت.

-6-

حمل نفسه على الصبر، لم يعد له سواه وسيلة يتقي بها قسوة الزمان، وهو وحده الذي يوارب له الأمل في يوم جديد يبزغ فيه الحلم ويتجسد، وتشرق فيه رغبات القلوب الواهنة. وتندفع نسائم الأحلام تطوف وتقترب.. ولعله.. وقتها.. يستطيع أن يغافل الزمن ويقتنص حلمه.

في اللحظة التي عاد فيها من عمله، وجسمه ينقذف إلى المساكن ووجه بمشهد يوجع القلب. النسوة اللائي تخففن من ملابسهن يوصدن الباب بأجسامهن، ورءوسهن تطل مزاحمة، وثمة من يهرول في قلق، وفتاة تجري في يدها علبة من العسل، وفي الأخرى ملعقة تطوح بها..

وقف مدهوشاً، ترمقه الوجوه ولا تقف.

كأن العيون لا تبصره.. أو كأنهن اتفقن أن يتجاهلنه.

لكن الطفلة الصغيرة أبصرته فاتجهت نحوه، العينان حمراوان، والدمع يحدد مساره على خديها حتى بدا خيط الدمع واضحاً.

جرت إليه، ومسكت يده، يحاول فهم الموقف، شدته فأطل عليها وتوجع حين رآها تبكي وينتقض جسدها الصغير، حبيبة ولده وصاحبته

التي لا تفارقه إلا ساعات النوم.. وخفق قلبه، وشـــعر بخـــوف يغـــزوه فاندفع.. لم يسمع رجاءها وهي «تتهته».

– «حوش» عنّه الموت.

وخاض في الأجساد التي انفسحت قليلاً ثم عادت.

شاهد امرأته تنحني على الولد في هلع وتوجع ووجهها يحمل خوفـــاً عميقاً وعينها يكاد ينطفئ منها البريق، والولد الصغير ممدد علـــى الأرض لا حراك فيه.

أدار رأسه باحثا عن جد الولد. وتعجب كيف يفوقته الأمر ولا يحضر. من غيره– في غيبته يواجه الطوارئ ويسعى لحلها– هزه أنـــين متقطـــع، وأخجله بصر مشدود نحوه كأنه يعاتبه فانتحى جانباً ولزم مكانه، تساءل في تمتة: لماذا لم تذهب به إلى الطبيب؟

علا صوته– وهو في ركنه المتروي– وتقدم خطوة، وانحنى.

– لنذهب إلى الطبيب أو نستدعيه.

استدار إليه الوجوه، وتحركت الشفاه كأنها تعاتبه. رفعت امرأة رأسها، ومسحت وجهها، وتنسمت بطرحها وقالت.

– أم توحة.. الداية.. على وصول.

بنصف وعيه شاهد المرأة تقتحم الغرفة، وتخترق الجمع في حدة كنصل سكين، تنحني على الولد وتعريه من ثوبه، الجسد ناشف كتقطعة الخشب، زاحمته رائحة الخل، وزيت الزيتون، أمالته إلى الجنب، وأرقدته على بطنه، ثم على ظهره، رفعت قدميه قليلا شدت ذراعه، ودعكت أصابعه، وضغطت على صدره.نطقت في عجلة: بصلة.

امتدت اليد، ثم أزاحت الأم، ووسعت المكان، وطلبت نسمة من الهواء، وهوت على البصلة بقبضة اليد، وقربتها من أنف الولد زاحمته الرائحة، فعلا صدره وشهق وتلوت رأسه.

لأن الجسد، ورمش الولد، فزغردت واحدة لدى الباب. دثرت المرأة جسد الولد بملاءة ولفته بإحكام.

وتميل المرأة على الولد، وتضعه في حجرها، وتسند رأسه بذراعها وتطلب عسل النحل والليمون، تشير إلى القناة أن تفتح «البرطمان» وأن تقربه، تملأ الملعقة وتقربها قليلا من الفم، تتحرك الشفة قليلا، ثم تنفرج الأسنان وينسل «سرسوب»، العسل خيطا موصولاً... ويتلقاه اللسان في تمهل وكسل، رفعت الملعقة وتركت له فرصة ليستريح!

أطلت بعينيها، فشعرت بنظرات امتنان تفيض حولها، مسدت شعره وقالت:

– لا علاج يعلو على العسل.

وقربت الملعقة من فمها، وسحبت العسل، استحلبته قليلا ثم بلعته.

– ربنا يقول «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس».

غمست الملعقة ونظرت محدقة ثم قالت في تحسر.

– العسل كان زمان.. كل حاجة طالها الغش.

وطوفت ببصرها في أرجاء الغرفة، رمقته مترويا فأهملته واتجهت إلى الأم، نصحتها بألا تقطع العسل في البيت، وأن تطعمه منه ملعقة صغيرة على ريق النوم.. ثم ضحكت وزعقت.

– لو وضعت عليه حبة البركة لزوجك أراح بالك.

علا وشيش الضحكات وظلت الشفاه منفرجة، والعيون مبتهجة.

***

كان مثقلا بالهم، تغوص عيناه في سحابات كالأشباح تحوم في فضاء الغرفة كخيالات الليالي البعيدة، وتلوح ملامح الذين فارقوا في ارتعاشة الضوء مبهمة وباهتة.

وتساءل: ما الذي فعله لولده؟

وجاءته الإجابة في همس مجروش ينبئ عن خيبة، لا شيء وأطل من النافذة، ورنا إلى السماء ودعا له وهوت عيناه بعيدا.. منذ أن كره والده الدنيا ومات مبكرا.. حمله الهم، وناء تحت قسوة الحاجة.. وها هو ينتظر لعل السماء تفتح أبوابها في لحظات الضعف الإنساني وهو يبتهل، فتحقق

له الرجاء في مطرح صغير يحميه وأسرته، أو أن يودع الـــدنيا، ويتـــرك لولده أن يحقق الحلم الذي لا يأتي.

قدمت الأم كوب الليمون المحلي بالعسل، مشفوعا بأمنيات الشـــفاء وابتهالات رهيفة أن يحفظه الله في ظل امتناع الرحم عن الحمل، واليـــأس من إنجاب جديد.

وقربت المرأة الكوب من فم الولد.. وراحت تمس شفتيه الناشـــفتين بالملعقة ثم انزلق الليمون سرسوبا دقيقا حتى سري الدفء في الجسد، ظل الولد ساكنا في حضن المرأة حتى اطمأنت.. وحل صمت غريب لا تعرفه المساكن إلا قليلا، وترددت الأنفاس في هدوء منتظم.

أو مأت إلى الأم حين لاحظت دخوله في النوم.

تناولت الكليم القديم وطوته ومهدت له الفراش..

راحت المرأة تقرأ الصمدية، والمعوذتين. كانت تخرج الكلمـــات مـــن فمها همسا له طقسه الخاص، وضعته على الفراش وسمت بـــالله الحـــافظ البارئ، الشافي، المعافي.

مالت إلى الركن الذي يلبد فيه الأب وابتسمت..

– شد حيلك وهات أخ له..

تداخل حتى كان يختفي، وشعر بحرج حين نكـــأت الجـــرح الـــذي يستعصي على العلاج.

تناولت ورقة من جريدة قديمة وبدأت تقص، وتقطع. كان ما تبقى يماثل عروسة مفرودة الذراعين والساقين، مدفوسة الرأس بين الكتفين.

مسكت المرأة بالإبرة وراحت تطعن الجسم.

تنغرز الإبرة في قلب العروس، وتردد أعوذ بالله من الجان وشره، وتفقأ العين وتقول.. أعوذ بالرحمن من عين الإنسان.. وتشك شكة ممطوطة.. وترنو إلى الأب واتضحك.. وهذه من عين الأب الذي يراه ولا يصلي على حضرة النبي، وهذه من عين الأم التي تراه ولا تسمي بالله.. لا يحسد المال إلا أصحابه.. وراحت الإبرة تنغرز في الجسد في حركات متوالية تواكب حديثها وأدعيتها.. أعوذ بالرحيم من الشيطان الرجيم.. أعوذ بخالق الكون من النفاثات في العقد.

كان ذراع المرأة يتمايل وسط الهواء الراكد.. وهي تخرق عين من رأى الولد، ولم يصل على الحبيب النبي المصطفى.

لم يغير موضعه، ظل قابعا في ركنه الذي التزمه، يشاهد أداء المرأة في ذهول ودهشة، لا يصدق هذا الاهتمام البالغ بمرض الولد.. يدرك أنه الهزال وأن الغذاء سبب كاف لحدوثه.. فالمسكن يفتقد إلى السلامة والتهوية، وتعلق بصره بالمرأة، وأخذته الإبرة في اختراقها الجسد الورقي.. وتساءل كأنه يلوم نفسه- ماذا كانوا يفعلون لو كنا من الأغنياء!

وكاد يضحك هازئا بالضحكة.

وشرد ذهنه وطاف به حتى تجسدت أمامه صورة الطبيب، وأجرة الكشف والسماعة المدلاة، والأصابع التي تدق على الصدر وتجس البطن، وتسطر الأدوية.

أصابته رعدة وتساءل في رعب كشفته حدة العين.. هل كان من الممكن أن يرى هذه اللمة! ويشعر بكل هذا العطف؟ وابتسم، دارى بسمته حتى لا يلاحظه أحد.. فبعد لحظات قليلة ستقوم خناقات حول دورات المياه، وحنفية الشرب في الحوش، ونظافة السلالم، والمترصدين للصاعدات، والنازلات، والمتلصصين لمن تستحم حتى في نصف الليل، ونصبة أم توحة على السطوح.

من يلاحظهن الآن لا يعرفهن، والأيادي تمتد كالأشواك، وشعر الرأس يتلوى بين مخالب الأصابع.

وظلت البسمة تائهة حتى صكه صوت المرأة تطالبه بعدو كبريت. تلجلج حتى أضحكهن، وأخرج علبة الكبريت.. وراح يهوم من جديد، ويتساءل: أين ذهب جد الولد؟ ولماذا تأخر كل هذا الوقت؟ لو كان حاضرا لواساه، وآزره.. وهو يعترض على طقوس أم توحة، ثم يستسلم لها.. ويقدم لها البخور ويجزل لها..

أشعلت المرأة العود، وألهبت جسد العروس الذي تمزق، وتقطع ثم تفحم حتى تحولت إلى رماد هش سحقت المرأة بقايا الجسد، وأخذت الرماد بين أصابعها، ورسمت على جبهة الولد خطين متقاطعين من السواد

ورفعت صوتها داعية.. أنت الشافي يارب، لاشفاك إلا شفاؤك.. باسم الله أرقيك والله يشفيك..

ووقفت متصالبة، وذرت بقايا الرماد، وطيرته بنفخة قوية مباغـــة في وجوه الحاضرات..

وهمت أم توحة تستعد، شدت جزعها، ولمت صدرها، واطمأنت على شعرها تحت المنديل، وأخرجت خصلة صـــغيرة تطـــل علـــى الجـــبين.. وتسحبت خطوة خطوة، والعيون تتابعها.. ثم أخذهن هرج مفاجئ ورحن يذكرنها بالليالي الجميلة، ويطالبنها بتحديد أمسيات الحضرة، وإخـــراج الجن، وقراءة الفنجان وحل المربوط.

وضحكت في وجوهن، ولاح الود الدافئ يطفر من صوتها...

– جن إيه، بطلوا نكد بس.

وترمقه في ركنه المتروي وتقول:

– عندكم الشيخ روحوا له..

مضت.. وتركت وراءها رضي ظل يشيعها حتى غابت خطواتهـــا في الطرقة.. وحل صمت ثقيل لا يقطه سوى صيحات الأطفال، ونـــداءات تتعالى من أسفل.

وأخيراً بعد تورتر طال، يستطيع أن يتخفف من الملابس، ويستريح قليلاً.. ودون أن ينظر إلى زوجته وضع الفوطة على كتفه واتجه إلى دورة المياه.

وانحنت الأم على الولد، وسمعت تنفسه المنتظم واطمأنت، واتجهت إلى الثلاجة الصغيرة.. التي اشتراها لها والدها، وأخرجت لفة اللحمة التي أتى بها زوجها. قبضت على مقبض الحلة وخرجت، طوت الدرج، ودقت الباب.. لم يرد عليها.. كتمت قلقها استدارت.

لمحها وهو يطأ الدرجة الأخيرة من الدرج فنادى عليها.. انتظرت.. حتى إذا أتاها دمعت عيناها وارتجف الجسد، أخذها في حضنه ومضيا.

انبأها أنه علم بما حدث، وأن أم توحة طمأنته وأوصته به.

وهل يحتاج الجد إلى نصيحة؟ والحفيد أليس أعز الأولاد؟

مسك يدها، وبط كفها، ودس في يدها ورقة مالية أبت في وهن لكنه أصر، وأنبها.

– الولد يحتاج إلى غذاء.. وأبوه أيضا..

نصحتني بذلك أم توحة.

ابتسمت في حياء. كأنما تستجديه أن يكف وقالت:

– سننتظرك على العشاء.

– سأمر عليكم في الصباح..

حين تساءلت عن غيبته أخبرها بأنه كان يؤدي واجب عزاء.. وأنه ظل حتى صلاة العشاء.. وأن المكان امتلأ برجال المساكن، فهم لا يتجمعون إلا في مناسبتين، فرح أو موت واللمة تشد من أزر الناس وتخفف عنهم.

وقف أمام غرفته وأخرج المفتاح وفتح.. مد يده وضغط، فامتلأت بنور النيون المبهر.

دعاها للدخول فاعتذرت، وتعللت بتجهيز العشاء. ربت على كتفها ودعا لها بالستر وواصل حديثه.

– خففي من قلقك على الولد، واهتمي بزوجك.. «سيد» طيب يا مبروكة ولا يبخل بشيء لإسعادك. أما الولد فسأصحبه غدا إلى المستشفى لأطمئن عليه. وضحك.. وطالبها أن تضحك وعلا صوته.

– أنا لا أطمئن لطب أم توحة.

أشعلت موقد الغاز، ورصت قطع اللحم فوق الصينية.. وشقتها بالسكين، ودعكتها بالدقيق الأبيض، ثم غسلتها.. حين غلى الماء ألقت باللحم. وقطعت البصل دوائر، وأضافت أعوادا من الكرفس.

امتلأت الغرفة ببخار اللحم، وحامت رائحة الكرفس، فدغدغت الرغبة، وأثارت شهية للطعام كانت غائبة. وأطلت من النافذة، كان

الليل يفرش عباءته المعتمة ويطرد ضوءه، والصمت يتسرب حثيثا إلى الأمكنة والنفوس، اخترق سمعها صوته الذي دخل في حشرجة فافت أن يرتعب الولد في نومته الغافية، فمضت مهرولة ومسته في كتفه وطلبت أن يعتدل ويريح رأسه، تمطى واستقام..

أدار رأسه، وشم الرائحة، وسال لعابه، وأدار معصمه، الساعة تسعة منتصف الليل، وهم ناهضا.. انحنى على الولد، واطمأن.

ورمقها وهي تجهز الطعام..

كان القلق لايزال قابضا على ملامح الوجه. وبؤبؤ العين يروح ويجيء، ولا يقر له قرار.. ولا يبرح وجه الولد وطللته البهية التي تسعدها.. خمس سنوات وجسدها يتهدم من التعب وأمنيتها في حمل جديد لا تخبو، ولا يطمرها تعب.. لكن البطن تأبي..

والرحم تستعصي على الحمل.

نادته ليأكل.. جلس أمام الطبلية وسمى بالله وراحا يأكلان في صمت.

-7-

كانت أنفاس الولد الصغير تتتابه في خفوت، فارتاح صدر الرجل، واستبشر خيرا، وحمد الله على سلامة الولد، خرج به من الدنيا، قبع في ركن بعيد من الغرفة، وأشعل سيجارة، لا مفر من أن يفعل ذلك، رغم إدراكه أن الدخان قد يضايق الولد في نومته، لكن ما باليد حيلة..

فليس أمامه إلا الغرفة.. فهي سكنه، وملاذ رغبته، ومكان استقبال معارفه.. وبابها مخروم، لا تحجب كثيرا ما بداخلها.. ظلت الأم بجانب الولد لا تفارق عيناها وجهه المبتل بالعرق، ولا تفارق حركات الصدر وهو يتنفس في هدوء وكأنه لم يكن منذ لحظة تلك القطعة من الخشب الجافة المتصلبة.. وشاع في الغرفة سكون صامت.

تنبهت إلى أن زوجها قابع في مكانه لا يبرحه، وأنه صامت.. لا يتحدث، وليس ثمة ما ينبئ عن وجوده إلا الدخان الصاعد من سيارته التي لا تنطفئ. نهضت في خفة، ومرقت إلى فتحة الباب وأسدلت الملاءة لاصقته فأحست بدبيب القلب يسري.. وبهمود غويط يحط على وجهه.. طلب من امرأته أن تعد له كوبا من الشاي، شغله هاجسه اليومي، وأمله الذي لا ينطفئ وهو يسكن إلى امرأته، أن أحدا لا يلاحظه، ثم يمرق بعيدا كأن شيئا لم يكن.. بل.. ومن يضمن أن الأمور تسير في وضعها

الطبيعي.. بل .. من يؤكد أن الشيوع والاختلاط ليس هو الأمر المعقول في هذه الحالة.. ومن عشرة أعوام مضت..

أحس بطعم الشاي لذيذا بالرغم من مرارته، كان يحتسيه في نشوة كأنه يفتقده من زمان، وكانت عينه تبتسم، ووجه امرأته يحتد وهي تراه متلذذا..

امتدت يده إلى رأسها وأزاح المنديل، فبدا الشعر ملموما، ثم سرعان ما انحل كسبائط الصفصاف، فتعجب من جماله وسيولته.. رغم ندرة المياه وشحتها..

كانت عيناه تناجيانها ففطنت لملامسة الإشارة، وأسرعت هامسة.

– ليس وقته، القدم لا تزال تدب، والعيون مفتوحة، تنهد في ألم لم يخف عليها.

– متى يشعر المرء بالراحة في بيته؟

همست وهي تربت بكفها على فخذه.

– لم يبق إلا القليل.

سحق السيجارة بأرض الغرفة في حدة خافتة.

– كل يوم نصبر أنفسنا.

– هل هناك غيره.

– الموت.

خرجت الكلمة من فمه مدممة باردة، فأسرعت تطيب خاطره

– إنني أظلمك معي:

لاصقته، وواجهته، ومدت ذراعيها تحتضنه.

– نحن أفضل من غيرنا بكثير.

كان الثوب ينحسر عن قصد، وكانت الأصابع ترتعش في رغبة.

– غداً سيكون أفضل من اليوم.

وضحكت عيناه. كثيرا ما كانت تفضحه عيناه تكشف دمدمات الداخل سخونة الدم.

كانت السيجارة تتوهج، تطرد ظلمة الغرفة، وتلمع كالشهاب... ضغطتها بذراعه وقال متمتما.

–.. ولم لا.. قد يكون الغد أفضل.. ثلاثة آلاف وستمائة وخمسين يوما.. وأنت تقولين غداً سيكون أفضل.. من يدري .. ربما يكون الغد أفضل..

وضحك، فتداخلت تحت ضغطته وارتخت أصابعها..

– غداً.. ستفتح الدنيا كنوزها لنا..

ابتسمت وصوتها يعلو في حذر.

– لا تنسى وأنت تغرف من الكتز.

– أنسى عمري!

ومد كفيه وأحاط الوجه، كان وجه امرأته كقمر الليل المعتم تهدجت أنفاسها، وأوشكت أن تبكي..

– سأشتري لك ملابس لم تلبسها امرأة، تتمخطرين بها في الشـــوارع، أما في الليل فسيكون ثوبك أرق من النسيم.

ضحكت المرأة زاعقة حتى كاد الولد يجفل، وأمالت رأسها، وحسرت الثوب عن صدرها، وعرت معصمها.. وقالت:

– أتكسوني وتبقي رقبتي عريانة.

– لم أغفل ذلك أبداً.

مشت أصابعه على الرقبة، والصدر، والمعصم.

– سآخذك إلى أكبر محل يبيع المجوهرات، سأشتري لك كردانـــا مـــن الذهب الخالص، وخلخالاً، وغوايش كهيئة الثعبان.. وحلقاناً على هيئـــة القلوب.

جاءتها الرعشة راغمة، فازدادت التصاقا به.

– لا تطر بي بعيداً!

اتخذ وجهه هيئة الجد وصاح خافتا..

– ذكرتني.. سأشتري لك جناحين تطيرين بهما.. مادمنا سنغرف من الكتز.

– ولكنك نسيت شيئاً..

– لم أنسه.. سيكون فراشك من القطن المجني لتوه من الحقل.

وستنامين على سرير بعمدان مصنوعة من النحاس الخالص، فأنا أكره الأسرة الخشبية.. وسيكون السرير عاليا حتى أرفعك كلما تنامين عليه..

وللحظة هاربة من سكون الغرفة وظلمتها.. وتوهج السيجارة، وانطفاءتها.. مدت ساقها ورفعتها وتمتمت في خفة..

– الأفضل أن أقفز بنفسي، فسأكون ثقيلة عليك..

– دائما أنت خفيفة ورشيقة.

– لا تبكني.

– بل اضحكي وافرحي..

ضحكت، وتدللت، ثم همست.

– ومن أين تأتي بالقوة:

– اللحوم ستشد العضل. والفراخ البلدي ستقوي العصب والفاكهة الطازجة كفيلة بمد الجسم بطاقة هائلة على الفعل...

فغرت فاها، فبدت في عينه وجها رائقاً مستحباً.

– اللحوم والفراخ والفاكهة!!

– الخروف كاملاً من أجل خاطرك.

– وهل الحلة تسعة؟

أدرك السخرية فلم يحفل وتابع قوله..

– قولي الثلاجة.. لا.. لا.. بل الفريزر، ألم تسمعي عن الفريزر.. لـــن تنقطع اللحوم عن بيتنا العامر..

– هذا كله غداً!!

أجابها بثقة تمامة.

– نعم غداً.

– ولكنك نسيت شيئا مهما.

– غير كل الذي قلته:

– نعم.. أين سنضع ذلك كله.. في الغرفة!!

صمت قليلا وأخذ يردد.. أين سنضع ذلك.. كله.. ذلك.. كلـــه.. وفجأة بهرها بقوله حين ألقى عليها مفاجأة لم تتوقعها.

– هذا أمر سهل.. فغداً سيقوم الرجل الأول ذو القلب الكبير بتوزيع الشقق على المحتاجين وسكان الإيواء..

نسيت نفسها، وخبطت على صدرها في فرحة غامرة..

– صحيح!!

– نعم صحيح.. فهم يبنون في كل عام **100** ألف شقة، ونحن هنا من عشر سنوات..

أسرعت قائلة في حزن – عشر سنوات وأربعة أشهر وعشرة أيام..

– اضربي **10** سنوات في **100** ألف شقة، وسيكون النـــاتج مليـــون شقة بالإضافة إلى شقق مبنية ومقفولة، وإلى شقق مفروشة، استولى عليها الرجل ذو القلب الكبير من أصحابها لصالح الغلابة.. سيكون لنا نصيب إن شاء الله..

– أصحيح ما تقول؟

– أعهدت على الكذب يوما؟

– ما عهدتك إلا صادق.. وهذا ما يحببني فيك.

اتخذ هيئة الجد، واستمت ملامحه بالجهامة فجأة..

– أرجو ألا تخبري أحداً بذلك.

– هل تعودت مني أن أفشي لك سرا؟

– أنت كتومة حتى في مشاعرك..

وكانت قد ذابت وهجا تحت ذراعه فهمس..

– لنستقبل الغد بما يليق به. علينا أن نستعد له تهامست متسائلة:

– كيف؟

– تفعلي هكذا..

وشدها إليه.. تململت وهي تتداخل في حضنه..

– الفجر يؤذن.. وغداً عندك عمل..

– بل.. غداً تفتح الدنيا كنوزها لنا.. وستحصلين على شقة.. ومفروشة أيضا..

وذابت المشاعر تحت لفح الأنفاس، وسكون الغرفة، وصمت الولد.

-8-

كان الصباح نديا، وهو يمد يده إلى الملاءة يزيحها عن بـــاب الغرفة، قبل أن يلمح زوجته تتمطى على الحصير، وعيناهـــا تضحكان له.. كان في العين بصيص امتنان، فما أحلـــى أن ينام الإنسان على وسادة من الأحلام.. والدفء يحيطه مـــن كل جانب، وكان الولد يحرك عينيه، في بطء وتثاقل.. وتمنى أن تدوم أيامه والصبر يلازمه حتى يأتي الله بالفرج.. وتتعدل الأحوال..

مضى إلى الممر الضيق الطويل الذي يفصل بين جانبي المسكن.. وانحنى إلى الدرج.. وعند باب المسكن فوجئ بطابور من السكان يقفون وفي أيديهم أطفالهم.. تعجب مما رأى.. تصور للحظة أنه في مكان غير المسكن الذي يأوي فيه.. فما رأى ساكني البيت.. متجمعين مثلما رأى الآن.. حـــاول أن يتجنب الطابور ويمضي.. فهو وإن كان يحيا معهم إلا أنـــه يعـــيش في حالة، وعلى هامش حياتهم.. فالنهار بطوله يعمل بالخـــارج.. والليـــل لا يسعفه للتعرف بأحد، إلا إذا جاء صدفة...

أطل بعينيه إلى الجمع.. فشاهد أم توحة الطيبة التي رقت ولده أمس.. الأمر جدّ إذن. ثمة شيء حدث بل قد يكون الأمر جللا.. ربما أصـــاب المسكن شيئا أو حل مكروها بالبيوت المتطرفة، فمن عادة أم توحة الطيبة

ألا تترك موقفا يحتاج إلى مساعدة إلا وأسرعت إليه، ولكن ذلك التجمع كله وفي هذه الساعة الباكرة.. مريب ويبعث على الغرابة.

بادر إلى المرأة الطيبة يسألها ويتعجب مما يرى، مسكت المرأة بيده وضغطت عليها برقة، كانت الأصابع تندس في راحة اليد لامسة، وراجية، وكأنما توحي باللمس ما تعجز عنه بالقول.. همّ أن يفتح فمه ليتحدث ولكنها ضغطت كفه بشده وابتسمت وظلت مبقية على بسمتها، نظر إلى الطابور – فوجد الناس يحتفظون بنفس البسمة عالقة على الوجوه المتعبة والملامح الباهتة.. أمضّه قلق مفاجئ فترع يده بقوة من يد المرأة وصاح.

ماذا أرى؟

ولم يلتفت الناس إليه.. ظلوا وأطفالهم ينظرون إلى المرأة ويبتسمون.

وظلت المرأة الطيبة تنظر إلى الرجل وتبتسم. تعجب من تلك البسمة المنتشرة على الوجوه، وهو ما رآهم إلا عابسين.. تودد إلى المرأة. لا مفر من التودد إليها وقد رقت ولده، وأسعفته من مرض مفاجئ..

– هل حدث شيء..!

نظرت إليه المرأة في إمعان، ولأول مرة تمتعض في وجهه.. أدهشه امتعاض الوجه، وجهامة النظرة. فخشي على نفسه منها، ومن تعاويذها، وعاود التودد، وحمل الصوت تهدجا.

– يا خالة.. إنكم تنظرون إلى وتبتسمون، هل تضحكون مني؟

ربتت على صدره في حنان، وألفة كطبيعتها حين تكون رائفة المزاج.

– نحن لا نضحك منك.. نحن نفرح معك.

أغاظه القول فاحتد في حذر معاتب.

– تفرحون معي..!.. يا خالة.. هل من يعيش عيشتنا يفرح!!

لاح الغضب في العين، وزامت الوجوه لغضب المرأة.. وطوحت بيدها، وفردت أصابعها الخمسة في وجهه وقالت وهي تحرص ألا تغضبه..

– نحن عشنا معا عشر سنوات على الحلوة والمرة.. أتحب أن تستأثر لنفسك بالحلوة.. وتتركنا.

أطل الولد، وجاءت الزوجة.. وجرتّ إليه المرأة تحتضنه، حملته على صدرها ومضت به إليه وهي تتمتم فرحة.

– هذا ابني .. لي فيه أكثر ممالك..

قال وهو حائر بين الناس لا يدري ما يفعل.

– أنت الخير والبركة..

قالت في حسم لا تراجع فيه.

– إذن خذنا معك.

– هل تقوين على شغل البناء يا خالة.

رفعت المرأة الطيبة صوتها في ميوعة مباغتة، ونحن الولد جانبا في حدة..

– بناء!! إننا نعرف أين تذهب..؟

جرت الأم إلى ابنها، ولا صقته، زام الجمع، ومصمصت النساء الشفاة.. ورمقن الأم في غلّ..

قالت المرأة. تؤنبه.

– أنت لا تريد لنا الخير...

– وهل أملكه وتأخرت يا خالة..

– لا تتمسكن يا سيد.. إنني سمعت بأذني وأنا أقوم لصلاة الفجر.. إنهم سيوزعون مليون شقة هذا اليوم خذنا معك.. دلنا على الطريق...

صاحت النسوة وأيديهم تقبض على أكف الصغار.

– دلنا على الطريق.. واتركنا.. من أجل الأطفال. تواصلت عينا الرجل وزوجته واتسعتا، وكادت الدهشة تلف الجمع كله. أدرك أن المرأة سمعت كل شيء، وصلتها الأحلام التي طافت به ليلا..

حاول أن يفهمها أن الأمر لا يعدو حلما فاض به إلى زوجته في لحظة اختلاء نادرة، ولن المرأة رفضت وأصرت على أن تمضي معه. وصاحت في غضب شديد وهي تلوح بقبضتها في وجهه.

– لابد أن تأخذنا جميعا إلى الرجل المسئول الذي سيوزع المليون شقة على الغلابة.

وبكت المرأة الطيبة، كان بكاؤها صادقا ومؤثراً، وكان صوتها المتهدج الذي يشرق بالدموع كافيا لأن يلوي قلبه ويستحوذ على مشاعره..

– خذنا معك. لا أحد أغلب منا.. لقد صبرنا طويلا.. خذنا معك ولا تتخلّ عنا.

أحاطت به النسوة من كل جانب. وتناهى إلى سمعه الرجاء تلو الرجاء... نظر إلى زوجته، فرأى في العينين رجاء لا يقل عن رجاء النسوة، فتعجب منها وأدار بصره مندهشا. ومتألما..

واخترق الجمع صوت له حدة ممطوطة ورفيعة، كان له تأثير مباغت فولج إلى النفوس وأرعبها. وتساءلوا: لمن هذا الصوت الذي لم يألفوه من قبل.. واستقبلت جنبات المكان نبرات الصوت الزاعق حتى وصل إلى الحوش الخارجي وشملتهم قشعريرة موصولة، وتعجبوا أن يكون تأثير الصوت له مثل هذا النفاذ، حتى خشوا أن يكون صادرا من شخص ممسوس من الجن.

تطلع سيد في المكان وأدار رأسه في الطوابق العليا، ولم يبصر أحدا وتمتم خفية: أيكون الشيخ؟

ولاذ بصمته، فهو وحده- دون غيره من الرجال- الذي تغيب. الآخرون لهم أعذارهم، يغيبون كثيراً لأعمالهم البعيدة لكن ما عذره هو!

وأطلت التمتمات على الشفاه.. أيكون هو الشيخ لكنهم يدركون أنه لو كان موجودا لكان سبقهم.. هل اتفق مع زوج ابنته، أن يسبقهما، ويمهد الطريق لهما؟

فهو على كل حال يعرف من يعرف الطريق إلى الكبار.

صوته معلوم لديهم، لا يخطئونه أبدا.. والصوت الذي يصلهم مغاير.. صوت يقترب من الصرخة التي تنبئ بالالتياع والوجع.. ومبروكة في مكانها القريب من رأس الطابور راحت تلوم نفسها. كيف لم تدع أباها الشيخ؟ ولماذا لم يحضر ليطمئن على الولد كما وعد.. عللت الأمر بالوقت المبكر، والموقف الذي فاجأهم بلا ترتيب أو توقع، وأنبت في نفسها أم توحة التي تجاهلت أباها، ولم تخبره كما فعلت مع غيره.. لوت رأسها واحتجت.

– ليس حقها أن تمنعه من الحلم، وتحرمه من حقه المشروع..

وأطل عليهم في هرولة محسوبة، في يده المبخرة، يتصاعد منها بخور الجاوي والمستكة، ويطير بيده الأخرى سحابات البخور، ويرمي في الجمرة المشتعلة بحبات الملح التي تحدث فرقعة رفيعة كالدوي.

سكنوا لحظة، ثم هللوا لمرآه.

تعجبت أم توحة من البنت التي أهملت أباها ولم تخبره، وضنت عليه ولامت نفسها حين اتهمته بأنه خانهم وسبقهم.

واقترب منهم، تزاحمهم الرائحة، وتطوف بالرءوس سحابات البخور الشهباء.

ارتكنوا إلى صمتهم وترقبوا.

– خيبتم ظني فيكم.

وراح طائر الصمت يرفرف على الرءوس ويخبط الشفاه، ومضى – هو– ينظر في إمعان إلى الوجوه، ويتملى وجه الابنة الباهت وولدها اللابد في حضنها– تؤثرون أنفسكم بالمغنم..

وتحملونني مغارمكم.

قبضت الرهبة على الوجوه، فلازال الصوت بعيدا عن صوته،كأن أحداً غريبا ولجه، وناب عنه في الحديث واندهش سيد مما يقول وهاجس نفسه: أيعرف شيئاً نجهله.

وتفرس الشيخ في الوجوه حتى إذا وصل إلى أم توحة، تملّي عينيها الغائبتين وقال عاتباً.

– حتى أنت..

اهتزت قليلا ثم قالت في دهشة:

– من كان يتصور أنك لا تعرف؟

– لم يعد لي قيمة لديكم. أنا من فتحت لكم قلبي وبيتي.

ابتسمت على استحياء.

اليوم يكون بيتك كبيوت الكبار.

– أمعن التحديق وعلا صوته بعتاب حقيقي:

– غرفتي تسعكم جميعا.

أبعدت وجهها ورنت إلى سيد، ومبروكة، علهما ينهيان الموقف الذي يؤدي، إلى التأخير، فيسبقهم غيرهم ليقبضوا على الحلم..

– كشف الله لي خدعتكم، حمل إلى الصالحون وجهـــتكم ومســـاركم همست أم توحة لسيد:

– الخير ذهب بعقله.

وجدته أمامها وجفنه يفارق عينه.

– وصمتم أنفسكم بالجحود.. وأولكم ابنتي وزوجها أشارت امرأة في مقدمة الطابور إلى الجميع وصاحت.

– هذا الرجل سيعوقنا.

وصاحت في قوة:

– شاركنا في المسيرة حتى ندرك الحلم قبل أن يفلت منا.

واندفع في قوة، وارتضى أن يصاحبهم وأغدق البخور الذي راح يصاحبهم في غيماته المترعة.

كانت الوجوه مبللة بالدموع، والعيون محمرة الجفون، والأطفال يبكون لبكاء الأمهات.. وبدا له الموقف غريبا.. وللحظة خاطفة، ووسط التوسلات.. شعر بذاته، وبأنه لا يقل أهمية – بالنسبة لهم– عن الرجل الكبير المهم الذي وعد الغلابة بالسكن المريح– وأن عدد الشقق على مدى عشر سنوات لا يقل في الحقيقة عن مليون.. وأنه يكفي ويفيض، وأنهم صبروا بما فيه الكفاية.. وآن الآوان أن يقطفوا ثمرة صبرهم.. وما أجمل أن يسكن في مسكن له باب يحمي أسراره ولا يجرح مشاعره أحد.

رفع رأسه عالياً، رأى الجمع ساكناً يتعلق بنظرة منه.. نادى على زوجته في ثقة.

– احملي الولد واتبعيني ولا تنسي أباك.

زغردت المرأة الطيبة.. وزغردت النساء.. فرحات.. أفسح الجمع الطريق له.. وخطا بقدمه خطوة واثقة وصاح.

– هيا على بركة الله..

ومضت الأقدام وراءه تدق الأرض في تعجل.. والعيون تتعلق بأمـــل ينشب في قلوبهم مخالب الفرح.

-9-

مضى الطابور في طريقه زاحفا إلى أمله المحجوب بآلاف الأيام من الصبر والمعاناة.. وطوى الناس في مسيرتهم حفرهم، وبركهم، ومساكنهم.. تركوا كل شيء.. الملابس المنشورة على الحبال. والدجاج الرامح في الخلاء، والماعز الذي يتقافز في التلال.. ويناطح الصخر..

رأوا عبرة الكارو المحملة بالمياه ولم يهتموا وقدر الفول التي تنتظر الشراء، بقيت ساكنة ملتهبة، والأرغفة الداكنة مرصوصة في انتظار أن تمتد إليها الأيدي تتخاطفها.. أخذوا معهم ضجة الحياة، وخلفوا سكونا يرعش الأبدان..

حين أطل الجمع على المقهى التابع على أطراف المكان، فرحت صاحبة المقهى، وحدست أن صباحاً يوحي بالرزق يمشي إليها.. نادت على الصبي وألقت عليه أوامرها.. الماء المغلي، والشاي الحبر، والحلبة الحصي، واللبن البائت، والمعسل المنقوع.. والفول النابت.. وأطباق الحلبة الخضراء.. وكان صوت الصبي يجلجل سعادة، وهو يردد.. «جاهز.. جاهز ياست الكل..».

ولكن ست الكل كاد يذهب عقلها وهي تري ناس الإيواء يمرون بها دون أن يدخل المقهى أحد ممن تعودت رؤيته كل صباح، أكلها قلبها

وأيقنت أن وراء اللمة أمراً خطيراً، يجعلهم لا يأبهون بها، أو يلقون التحية التي تعودتها منهم صغاراً وكباراً.

جذبت ذراع امرأة وأخرجتها من الطابور غضبا.. والمرأة تجاهـــد أن تلفت ذراعها، حتى كادا يشتبكان..

– لن أتركك ما لم تخبريني بالأمر..

– تعالي معي وسأخبرك.

قولي أولا..

– يقولون إنهم سيوزعون اليوم شققا على ساكني الإيواء..

– يا أولاد الكلب.. ولا تخبرونني..

ورمحت وراء الطابور واندست فيه، وعقلها يطوف بها في أرجاء الشقة التي ستحصل عليها..

وصل الطابور إلى مشارف المدق الترابي، فمالوا يمينـــا وســـاروا إزاء شاطئ ترعة، غار الماء فيها، وضاق اتساعها بفعل أكوام التراب، وهـــدم البيوت.. كانوا يقطعون الطريق إلى قلب المدينة في الاتجاه الشرقي..

وكان لا يزال المدق الترابي يئن تحت خطواتهم المتعجلة..

لاصقت المرأة الطيبة، الرجل الذي يقودهم وقالت وهي تكاد تلهث.

– كان يجب أن نؤجر عربات كارو.. فالطريق طويل..

– وكيف تحسين باللذة، وأنت تسيرين إلى الشقة راكبة،

– أمسكت بكم جلبابه تلاحقه، وهي تستقطر شجاعتها وقوتها الكامنة..

– لو نرفع راية.. تدل علينا..

صاح في غضب وهو يجذب كم جلبابه..

– لا تتحدثي بذلك.. وإلا ظنونا مظاهرة.

التزمت الصمت..

ومضى الركب زاحفاً على الأقدام، كي يحسوا بحلاوة الثمرة وهم يقطفونها بعد عناء، كم هو لذيذ ذلك الطعم الذي يستحلبونه بعقولهم وهم يمضون قدما دون مبالاة بشيء.. وها هو يسيل على الأشداق عرقا وشمس الصباح تطل عليهم في رجفة مصفرة.

وصلوا إلى الشارع العريض المرصوف، واخترقوه فرحين سعداء.. تركوا بطن الشارع للسيارات، ومضوا إلى الرصيف..

لم يخل الأمر من دهشة وغرابة. كان الناس يقتربون منهم ويتعجبون، وتبطئ السيارات وتطل الوجوه ضاحكة.

لاحت السحنات مشدودة، والأطفال يبكون من وجع الأقـــدام، ولا نسوة يطوحن بالطرح السوداء، والرجال– من الأمام والخلف– يبـــدون كالرعاة يحرسون القطيع..

والمرأة الطيبة تتبع الرجل مباشرة، خطوة خطوة، وهو يمضـــي رافـــع الرأس يمسك ذيل قميصه بيده، وعروق الســـاق مشـــدودة وتنـــتفض، والرجل يدب في قوة، يخترق بهم الأماكن يمينا وشمالاً، والمرأة تدفع بـــه، وتحرك باشارة منها الوجوه المتعبة والأجساد الموجوعة.

كان المشهد يثير الدهشة، ويدعو إلى التأمل، فجرى بعض المشاهدين وحازوا المرأة، ساروا بجانبها وصاحوا.. وهي صامتة مندفعـــة، أشـــاروا بأيديهم.. وهي صامتة مندفعة، أشاروا بأيديهم.. وهي صامتة مندفعـــة، هللوا بكل حناجرهم.. وهي صامتة مندفعة.. اقـــتحكم واحـــد منـــهم الطريق فنحاه الرجل بعيداً.. وكاد يسقط غاص قلبها، وهي لا تبغي إلا الخير. حرك القلب اللسان فصاحت في قوة وثقة.

– انضموا، فاليوم موعد العطاء والخير..

تداخل البعض في الطابور، وسار البعض على أطرافه.. جاءها صوت من الأطراف يسأل.

– إلى أين يا أم..؟

رفعت يدها عاليا وفردت كفها ونادت..

– هلموا.. فالسماء تنفتح أبوابها اليوم..

جلجلت ضحكة مستهزئة خرقت سمعها..

– السماء أغلقت أبوابها.. يا امرأة..

– صاح آخر وهو يقهقه محذراً.

– خذو بالكم من جيوبكم، فوالله في الأمر حيلة، زغدها الرجل وهو يمضي مندفعاً..

– ألم أقل لك أن تكفي عن الحديث.

– ما تعودت أن أكتم الخير على أحد.

وصاحت بأعلى صوت تخرق الفراغ الهادر.

– أيها القوم.. بعد عشر سنوات كوامل سنحصل على الشقة.. اليوم سيوزع الرجل الكبير ذو القلب الطيب مليون شقة، سيوزعها على الغلابة.. سيوزعها على المساكين.. وهرع القوم وتداخلوا..

***

في البدء كانت السيارات تمرق كالسهام، ولكن المسيرة تمددت على الرصيف حتى شغلته كله..

وامتدت حتى طالت الوسد وتفرعت، أجبرت الناس على البطء.. ترك السائقون سياراتهم وانضموا إلى المسيرة. وتدافعت الأقدام وثار

الغبار.. فالرصيف رمل وتراب وطين.. وانعقد الغبار سحابة معتمة اللون قبضت على الأنفاس والصدور، لكنها ممتلئة بأحلام تستكن في عيون القوم، تنظر إلى السماء لعلها تعطي للسحابة المعتمة ماءها فتنهل خيرا يكفي الناس ويزيد.

-10-

وصل الطابور الطويل إلى مشارف النيـــل.. لم يبـــق إلا أن يعبروا الجسر الذي يربط بين البر الغربي والبر الشـــرقي.. حيث قلب المدينة.. ويا لفرحة الرجل الكبير صاحب القلب الطيب، وهو يرى جموعه زاحفة إليه.. على الأقدام..

تمد إليه اليد مبسوطة على اتساعها ليقدم لها مفتاح السعادة.. إنه يومـــه الذي يحقق فيه وعده فلقد آزروه، وصدقوه، وصبروا معه طـــويلا، وآن لهم أن يستريحوا ويحصدوا ثمرة الطبر الطويل.

وقف الرجل على صدر الطابور فتوقفوا جميعا.. ناشدوه ألا يتباطأ حتى لا يظهر عليه التعب ويعجزوا عن الوصول.. لكن الرجل ظـــل مكانـــه واقفا كأنما شدت قدماه بوثاق متين.. حاول البعض أن يصل إليه ليعرف لم توقف؟ لكن المرأة الطيبة منعتهم.. وصاحت فيهم في حسم.

– هو الرجل.. ولا رجل غيره، هو الذي باح بالسر وهو الأمين عليه.

والرجل في صدر الطابور لا يسمع أحداً، ولا ينتبه إلى صوت.. كات عيناه مصوبتين إلى الجسر، وكان الجسر في هوة سحيقة، لم يبق منـــه إلا قوائم مدببة،. صرخ في حد ارتعبت لها قلوب الناس.

– أين الجسر.

صعد على نتوء صخري، والغضب يلون صوته،، أشـــار إلى الجمـــع وهدر..

– أيها القوم.. لقد انهار الجسر..

خرج من الطابور صوت مدو.

– إنها مكيدة مدبرة..

شقت المرأة ثوبها حتى بان الصدر وصاحت..

– ولو.. هيا إلى الجسر الآخر.

وأخذ الجمع طريق النهر الطويل في اتجاه الشمال..

كانت الأشجار تتداخل بفعل حركة الجمع، وكانت مياه النهر لابدة.. ساكنة، وكأنما زصابه ذعر مفاجئ..

أخذ الرجل يحدث نفسه، والمباغته تحتويه وتنفضه.

– أيكون الأعداء قد دبروا لنا مكيدة.

سمعته المرأة فلاحقته.

– وهل للغلابة أعداء..!

قبض بيده على أصابعها.. وبيده الأخرى مزق الثوب عند الصدر.

– احجبي صدرك عن العيون.. مازال فينا حياء.. ضحكت فضـــاعت الضحكة وسط الضجة..

– ضاع الحياء في بيوت الإيواء..

مدت رأسها نحوه، وهي تلهث، والعرق ينحدر إلى صدغيها وإلى جلد الرقبة..

– ألنا أعداء..!

قبض على يدها وهو يمضي بها في اتجاه الشمال..

– الرجل الكبير استولى على عمارات بأكملـــها، وعلـــى المســـاكن المفروشة.. ليوزعها ضمن ما سيوزعه من مساكن على الغلابة..!

وتنهد الرجل.. وخرجت التنهيدة حارقة كاوية.

– أصابهم في الصميم..

ضربت بيدها على صدرها وصاحت:

– لقد فعلوها إذن.

لكزت بيدها الغضبى صدر الرجل، فكاد ينطرح.. أشارت إلى الجمع أن يمضي.. فالطريق إلى قلب الرجل الطيب مفروشة بالنيات السيئة..

وسدّت الهرولة مسامع الناس، وحجبت الأقـــدام منافـــذ الطـــرق.. وصلوا أخيرا إلى الجسر الثاني.. وهالهم ما رأوا..

كان الجسر الطويل العريض الفخم طللا باليا إلا من أسياخ الحديد المزروعة في عواميد الأسمنت المنكفئة يلطمها موج النهر.. تقف المرأة المصرية في زيّها القروي وهي تضع يدها إلى رأس الأسد.. غلت الدماء في العروق المرهقة.

قفز الرجل على سور عال، ونظر إلى الجمع.. كان الطابور طويلا، لم يدرك نهايته.. رأي الوجوه مصفرة، وعيون الأطفال مذبوحة.. ووجوه النسوة مدممة.. وفي عيون الرجال لمح بريقاً لا يقوى العناء على طمسه..

.. صرخ في الجموع..

– أيها القوم.. إن الأعداء يتربصون بنا.

هلل القوم وهدروا في صوت واحد.

– الموت للأعداء..

مد عنقه، وزعق بقدر ما تواتيه حنجرته.

– لقاؤنا عند الجسر الأخير.. بجانب الفندق ذي النجوم الخمسة..

.. بدا الشارع ضيقا ومحصوراً بين ضفة النهر الغربية والبنايات العالية على اليسار.. لم يتسع الرصيف لحركة الأقدام وتدافع الأجساد، فنزل الجمع إلى بطن الشارع.. الجموع تحتشد، وتتواصل، وتتدافع.. لم يهتم أحد بمن يسقط، فلابد من ضحايا وهم يزحفون إلى الأمل الكبير.. ومن بشر يتساقطون وهم يواجهون الأعداء.. الذين ينسفون الطريق إلى قلب الرجل الكبير، ليئدوا حلمهم العظيم!!

-11-

هذه المرة كان الأمر كالصاعقة، فلم يرد على الخاطر وهم يمضون إلى البر الشرقي حيث قلب المدينة، وقلب الرجل الكبير.. أن تتهدم فجأة الجسور المقامة على ضفتي النهر.. وكأن شهاباً من السماء ترصدها.. لم يحتج الأمر إلى تفكير طويل.. فالمكيدة قد دبرت وانتهي الأمر، والجسر الضيق الصغير قد تهدم هو الآخر، وحديده غائص في النهر، تبدو أطرافه المدببة كأشرعة الغرقي، على حين بدت الصور في الميدان علامات على الموت الطويل!!

لم يقو الرجل على كتمان حزنه وألمه.. كانت عيونه تدمع.. ولأول مرة رأى الجمع دمعه يسيل من عينيه كنافورة النهر المعطلة.. صاح فيه الجمع بصوت هادر..

– الموت للأعداء.

اعتلى السور المدبب وواجههم في حزن..

– أيها القوم.. ليس أمامنا إلا أن نجتاز النهر..

وحط صمت ثقيل له وخز الإبر وحد السكين.

– ولكن النهر عميق..

ردد في صوت محمل بألم آلاف الأيام التي قضاها في مسكن الإيواء..

– ليس أعمق من مأساتنا.

صكت المرأة الطيبة وجهها في عنف.

– أتظنون أنفسكم أحياء..

وبكت المرأة، وشهقت في حزن..

– حياتكم أكثر هولاً من اجتياز النهر..

أثارته المرأة، فتمددت ملامحه، وتغضن وجهه واستطالت عنقه، وراح لسانه يردد في صخب عال..

– لتكن أجسادنا الجسر الذي نعبر عليه..

ليمسك كل رجل يد امرأته.. ولتضع كل أم وليدها على كتفها، ورضيعها على صدرها..

والفتى يقبض على وجه فتاته..

إننا ذاهبون إلى عرس الأمل.. هيا بنا.. هيا إلى عرس الأمل.

وبدأ الرجل خطوته الأولى.. غاصت القدم في النهر.. والمرأة بجانبه تدفعه فيتدافع.. كانت يده مرفوعة.. وظلت يده مرفوعة وهو يغوص في مياه النهر حتى اختفت أطراف الأصابع. وتدافع الجمع...

للوصول إلى الشاطئ الآخر، حيث ينتظرهم الرجل الكبير ذو القلب الطيب.

***